أدوية الشتات العلمي

تأليف

أبى يزن حمزة فايع الفتحي

المحاضر بجامعة الملك خالد بأبها

وإمام وخطيب جامع الملك فهد

الطبعة الأولى

1429هـ/2008م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يجب ربنا ويرضى ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد ...

فإن من المظاهر المذمومة فى طلب العلم الشرعي ما يُعرف (بالشتات العلمي) والذى لا يستقر للطالب فيه قرار، أو ما يسميه كثيرون (الفوضوية العلمية) ونسميه هنا، الشتات العلمي، الذي تعريفه، هو التخبط البارز في جمع المعلومات والاضطراب فى جنيها وتحصيلها، وصفاته ما يلى :-

أولاً: القراءة في كل ما هبَّ ودبَّ دون تنظيمٍ، وترتيب.

ثانياً: التنقل من علم لآخر .

ثالثاً: التململ الثقافي، وقلة الصبر، والمداومة على شئ مخصوص.

رابعاً: الانذهال بالجمال العلمي وسعة آفاقه ، بحيث يدعوه إلى تعشق أشياء دون غيرها ، وهلم جرا .

وغير ذلك من الصفات التى ستبين معنا فى هذه الرسالة الصغيرة، ولا ارتياب أن هذه قضية شديدة الاهتمام فى رحلة التلميذ العلمية ، والذي يطمح أن يحقق مجداً رفيعاً ، ومستقبلاً زاهراً وينصر به أمته ، ويزكي نفسه ويرفع من خيره ودرجاته. لأن العلم أسمى الطاعات ، وأزكى القربات وما عُبد الله تعالى بأفضل من العلم . كما قال بعض السلف ، ولذا يحسن ويطيب أن تكون الوسيلة إلى جمعه وطلبه سليمة، مضبوطة الشكل والفعل بحيث تتحقق له الأماني ، ويختصر الأزمنة ، ويسلم الغوائل والآفات . فما أُتي شئ بالمنهجية الترتيبية والعقل التنظيمي، إلا أفلح صاحبه وتقلد أساور الفوز والوصول .

وهو ما نحب تقريره ومعالجته هنا حتى يدرك شبابنا، المسار الصحيح للطلب والسبيل القويم للتحصيل ، لأنه لا تزال هذه المشكلة، قائمةً ومنتشرة في مسالك الطلاب ، ولها آثارها السيئة على الحياة العلمية والطالب.

لكن قبل هذه الآثار نشير إلى شئ من أسباب الوقيعة في الشتات العلمي، فمنها :-

أولا: انعدام المنهجية فى الطلب، والدخول إلى رحابه دون صراطٍ مستقيم، أو منارة مضيئة .

ثانياً: الولَع العلمي، الذي يحمل صاحبه على تقفي كل شئ والحرص عليه دون التريث المطلوب ، والأناة المحمودة.
ثالثاً: الاستعجال الذاتي، والطامح إلى التحصيل السريع، والبروز المبكر دون اهتمام بالبناء الرصين، والقاعدة الصُلبة .
رابعاً: غياب الأشياخ الموجهين، والمربين النابهين، فيتجه التلميذ متعلماً حسب هواه وأمالي النفس عليه، فيقع فى الفوضوية والشتات الذي يحرمه من إدراك المأمول، أو بلوغ المرام، فيبيت كالمنبت، لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى، والله المستعان.
خامساً: ضعف القوة الصبرية على التزام نهج منظم معتدل ، يوفر المكاسب فى إطار محدود منظم ، فبدلاً من أن يقرأ كتاباً واحداً في أسبوع **،** يتقلب في ثلاثة كتب، بسبب ضعف صبره وهوان استحماله!!
سادساً: تخلف التوفيق الإلهي، الذي أحياناً سببه تكدر النية، أوضعف الشخصية، أو مقارفة مخالفات تعكر صفو القلب، فيتأرجح بين هموم شتى، ومقاصد مختلفة، والله الموفق والمعين .
سابعاً: تصور بلوغ الغاية بالتلقيط العلمي، من هنا وهناك على حساب اهتزاز الإتقان، وهشاشة التعمق وهما آفتان مستشريتان فى المجتمع العلمي والثقافي .
ثامناً: ضعف الحسم العقلي الذي لا يهدي السبيل، ويتوق الترتيب، وتغشاه غواشي التردد، و الاضطراب والوسوسة .
تاسعاً: تزاحم الفنون المرغوبة، والقضايا الرئيسة التى تتبادر للأذهان ابتداءاً، وتعشقها الآذان مباشرة! فأيّ العلوم أولى وأجدى ؟! العقيدة المورثة للإيمان، أم التفسير المغذى للحنان، أم الحديث الذي به شمَخ الفرسان، وجابوا الصحاري والأوطان ؟! أم الفقه الهادي للصواب ومقوم شعائر العباد؟! أو ربما قال: لغة الكتاب العزيز، وموطن صنع الذهب الإبريز، فهي محل تسابق العقول، وموئل تدافع الحذاق والفضول؟! إلى آخر تلك الدوامة النفسية التي لا ينفضي وسواسها أو يزول اضطرابها، والله المستعان ...
عاشراً: عدم وضوح الهدف المرسوم، أو تصدير التخصص المطلوب! حيث يقرأ التلميذ ويثابر في شتى المعارف دون وعيه لما يريد، أو ما الذي يريد التخصص فيه! هل هو العقيدة الراسخة أم التفسير البهيج ، أو الحديث الأصيل ، أو الفقه الخصيب ، أو اللغة المهذبة العجيبة ؟! لا غاية بادية، ولا توجه مقصود!!
حادي عشر: البدء بالمطولات والمستصعبات ، التى تغر الإنسان، وتستهويه بضخامتها إلى أن ينتهى به الحال إلى اليأس والتردد، ومن ثم تغيير المسلك والطريق!!
ثاني عشر: الإصغاء للمضطربين علمياً ومنهجياً، والتعويل على كلماتهم، رغم الحداثة الطلبية وضعف الخبرة الزمانية .

ثالث عشر: توهم سهولة العلم والقدرة على انتزاعه في رقم قياسي، يضمن له تحقيق الأمنيات، وتحصيل البركات، والله الموفق...

رابع عشر: سوء التعامل مع شبكة الإنترنت العنكبوتية, والقائمة على التصفح السريع، والرصد المتسرع المعكر للمنهجية المنضبطة، والمشوش للسلم التحصيلي.

خامس عشر: محاكاة الشخصيات الخارقة والأئمة الأكابر والذين عُرفوا بسرعة الحفظ، والتوقد الذهني، والجامعية المستوعبة، فيظن هذا الظان أنه يستطيع محاكاتهم في زمن يسير!! وهذا تفاعل سلبى مع تلك القصص والتراجم العجيبة !

والمستحسن التفاعل الإيجابي، والتأثر المفيد من كتب التراجم من نحو إجلال العلم ، والهمة العالية فيه والسفر إلى تحصيله، وجمع المصنفات، والتأدب بأخلاق أهله، والبخل بالزمان والمسارعة في الخيرات، دون إغفال للواقع التاريخي اليوم، واستعداد النفس الإنسانية لتلك الآثار. قال تعالى:" **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**" [الأعراف:176]،

وقال الشاعر:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالكرام فلاحُ

سادس عشر: رفض القناعة بالمنهجية المنظمة فى التحصيل الذي قد يكون سببه الاندفاع أو اعتقاد الخيرية في كل باب يُقصد، والله المستعان .

سابع عشر: التأثر بنقَدات الناقدين، ووجهات المثبطين الذين يقللون من التدرج العلمي كحفظ القرآن أولاً ثم المتون المختصرة، ثم الشروحات الميسرة، مع الحرص على الدقة والتنظيم، وعدم التسرع والإستعجال.

ثامن عشر: عدم خلو البال من القضايا المختلفة، والتناقضات الحياتية، التي تنعكس على القراءة والتحصيل، فتحصل الفوضوية والشتات وعدم الاستقرار .

تاسع عشر: الرغبة الاستطلاعية لكل ما هو جديد، ومختلف على النفس ومما زاد من ذلك، وأشعل، الثورة المعلوماتية الهائلة وتداعياتها المختلفة.

عشرون : الانشغال بمُلَح العلم ونوادره، وأشعاره المستظرفة ونكاته المستعذبة، واستغراق الزمان بها صباحاً ومساءاً وصيفاً وشتاءاً، مع عدم التفات للتأصيل العلمي المبكر، والبناء التثقيفي المتين.

هذه غالب أسباب الشتات العلمي الكائنة في حياتنا العلمية، وكثرتها دليل على عمق هذه المشكلة، وضخامة الداء الحاصل من جرائها، وأنها مزَلة أقدام كثيرين من الطلاب الذين اندفعوا بلا روية، وسارعوا بلا منهجية، فوقعوا فيما وقعوا فيه من التقاعس والتقصير. أما ما يتعلق بآثار الشتات والفوضية على الحياة العلمية والطالب فما يلي :-

أولاً: ضعف المحصِّلة العلمية، وقلة الفوائد المجتناة من المطالعة المشتتة.

ثانياً: فوات القدرة المتقنة لتخصص معين بسبب الهشاشة المعرفية والإقبال المتقطع.

ثالثاً: حيازة متفرقات علمية، ونتوش مبعثرة ليس لها رأس ولا ذنب ولا أول ولا تال.

رابعاً: تبديد الزمن المستهلك فى عملية الفوضوية ، والخروج بأقل القليل من الجمع والتحصيل .

خمساً: الإصابة بالملل والاستحسار، الناتج عن قلة الفوائد، وعدم الوصول.

سادساً: الشعور بعدم الإنجاز، أوالظفر بمكسوب عالٍ أو ذخيرة سامية.

سابعاً: فقدان مقومات الطالب العلمية .

ثامناً: ضياع الجهد المبذول ، مقارنةً بما حصل من قلة النتائج، وطول الوقت المستعمل، والله المستعان .

تاسعاً: حرمان الدقة، والضبط العلمي المفترض جنيه من القراءة الواسعة! لكن بسبب التشتث والتنقل، يفوت تحديد موضع المعلوم، ويعز العزو والوعي، والتدقيق.

عاشراً: ضعف التركيز بسبب تداخل المعلومات والمراجع المختلفة، وتعدد الأساليب.

إلى غير ذلك من الآثار الناتجة عن التشتت في القراءة والتحصيل **،** مما يدل على فداحة هذه الآفة، وخطورة هذا السقم، الذي يتحتم علينا معرفة أسبابه وعلاجه، وإزالته من حياة التلاميذ العلمية.

والمعنيُّ بذلك جهات عديدة هى كالتالي :

(1) الجامعات والمعاهد الشرعية، التي تنتهج تدريس العلم الشرعي، وإعداد علماء المستقبل.

(2) المؤسسات العلمية، والبحثية المختصة بإعداد البحوث، ومتابعة النوازل العصرية، وحل إشكالات الفقه الإسلامي.
(3) المشيخة المعنيون بالتدريس العلمي، وفك المتون، وتربية الطلبة من خلال التدريس المتواصل. والشروحات المتتابعة، في مختلف الفنون الشرعية.
(4) العلماء المستبحِرون الذين خبَروا الطريق، وخاضوا الحجة، وعكفوا للتأليف المفيد، والإفادات العميقة .

فهؤلاء وأشباههم يمكن أن نستفيد منهم ما يلي:

1- تسجيل تجربتهم، وبيان المنهج الأحكم في ذلك.
2- إصدار نشرة أو مجلة تهتم بالمنهجية العلمية.
ج- كشف المحاذير والأغاليط، التي يخشى الوقوع فيها، ويُخاف على التلاميذ منها.
د- الإشراف على مجلات أو حِلقة، أو دورات علمية مؤصلة، للحركة العلمية الإسلامية.

فهؤلاء أشهر من يُعني بإزالة هذا السقم من حياة الأمة، وتربية الأجيال على منهج قويم، وآلية علمية مرتبة، بقدر العلم والطالب والزمان، وتضبط الهمة والنشاط، والولَع والتنافس، لأن الهمة الحارقة أحيانا تضر بصاحبها من كونها تنوي التهام المعلومات فى وقت يسير، وتنتقل بصاحبها من علمٍ إلى آخر ومن كتاب قديم إلى آخر جديد، وهلم جرا.

وإنما تُطلب الهمة الحارقة في أمور هي كالتالي :

1. الحرص على العلم وجمعه وتحصيله في كل الأحوال والأوقات .
2. تقديس الوقت، والضن به، والمسارعة إلى استغراقه بالعلوم النافعة والأعمال الطيبة الصالحة .
3. كسر العوائق الظاهرة في الطريق، وإزاحة كل أشواكها وآفاتها .
4. التزود المطلق من العلم ومعارفه، وعدم الاكتفاء بنوع معين، أو علم مخصوص.
5. حب التعريف على المجهول العلمي، واستكناة كل ما يتوقع جدواة وعائدته على المسلم المثابر.
6. السفر للقاء الشويخ و زيارة النخب العلمية والفكرية، واختراق المكتبات وحيازة نفائس الكتب وروائع الأسفار.
7. خوض عميق البحار العلمية بكل جد وشجاعة، واستخراج ما فيها من الدرر اللامعة، واللآلئ الفاخرة وذلك لا يتم إلا بالمطالعة المستديمة، وضبط المتون المشتهرة. وجرد المطولات المفيدة، وفهرسة الفوائد والملح أو الجمل النادرات.

فهذه المعالم وأشباهها هي مما يحب أن تتحرق عليها الهمم، وتشتعل لأجلها العزائم، وتتجه إليها النفوس باللهفات، وبالبسَماتِ والآهاتِ والطرِبِ.

والمقصود المهتم به هنا، أن الشتات عقبة يجب على العلماء المربين تجاوزها، وكسر صعوبتها ببيان النهج السديد، والطريق الواضح المبين، لأنه بابٌ ولجه كثير من فتيان المسليمن وفتياتهم، فحلت بهم الحسرة من جراء ما وقعوا فيه من التخبط، والهشاشة، وعدم الضبط والتركيز، وأحياناً ربما انتهى الحال إلى الطلاق البائن، والفراق الدائم والله المستعان .

ويَعِز على عقلاء الأمة، والمشفقين على حالها ومستقبلها أن يروا الشباب، وقد حفتهم الأهواء، واختلفت عليهم السبل، وانتهى مصيرهم إلى تخبط بارز، أو إفلاس فاضح، بسبب عدم وضوح المنهجية والسيرورة بحماس واندفاعية، طمعاً فى تحقيق معجزة علمية ، أو اختراق ثقافي في زمن محدود ، وبآلية معوجة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

إن العلم متنوع الفنون، وكثير المسالك، واسع التفريعات، ولا يمكن لشئ هكذا وصفه، أن يُجمع في زمن محدود وعلى تشتت وتمايل وانقباض! إن النظام مبدأ إسلامي، أرساه الله تعالى في حياتنا وأفكارنا ومشاهداتنا وجعل من حسن حركة الحياة أنها تسير وفق نظام محكم ، وطريقة سوية لا ترى فيها عوجاً ولاأمتا فها هو الكون بأفلاكه وعجائبه يسير وفق سنن منتظمة، وتتجه حسب إشارات موزونة، لا يملك المؤمن معها إلا الإيمان بخالقه تعالى، والتأمل الفسيح والاعتبار المخبت. كما قال تعالى: " **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)** [إبراهيم: 32-34]، وقال تعالى: " **وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ القَدِيمِ (39) لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)" [يس:37-**

40]، وقال تعالى: **" مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ " (4) " [يس:4].**

والمتأمل للإنسان ودورته الزمانية، يلقي فيها عظمة الله تعالى فى جعل هذا المخلوق بشراً سوياً، عبر مراحل خلقيه يمر بها، حكاها لنا القرآن ، ثم إنه جعله في أحسن- تقويم، وأمره بالسير والكدح فى هذه الحياة وفق القيم الشرعية، والمحاسن المرعية وحذر من تكليف النفس بما لا تطاق. وأرسل سبحانه وتعالى الرسل بشرائع موزونة، ومتدرجة، تبدأ أولاً بإصلاح التوحيد، ثم تتجه لباقي التشريعات، وتأخذ الناس بالرفق والرحمة والحوار التي هي من شواهد النظام في الدعوة والحياة. وكان آخر الرسل صلوات الله عليهم رسولنا المختار، ونبينا البار عليه الصلاة والسلام الذي بان من دعوته وسياسته حسن تخطيطه وروعة تنظيمه ، وأنه يسير وفق خطة محكمة، ومنهج منتظم.

وهذا يتجلى فى أمور منها:

أولاً: التركيز على قضايا العقيدة ، وطرح كل ما يعبد من دون الله ، حيث مكث ثلاث عشرة سنة يقول: **(يا قوم قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)** وهذا إبان الدعوة المكية

ثانياً: نزول القرآن منجماً حسب الوقائع والأحداث : " **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً** " [الفرقان:**32].**

ثالثاً: قيام دعوته على إصلاح ما بين العبد وربه تعالى، وما بينه وبين الناس حسب قانون شرعي واجتماعي، يكفل الحقوق، ويرتب الأولويات، ويفرق بين الكليات والجزيئات دون اهمال أو إخلال أو خلط وتفريط، بحيث أصبحت شريعته منبع النظام الجميل والصورة القيمية الراقية .

أنت الذي زهَت الحياةُ بنوره وأبادَ جيشِ الليل وهو لهامُ
وأقام فى الدنيا النظام وقبله ما كان فيها منهـجُ ونظامَ

رابعاً: التدرج في تقرير الواجبات، وتحريم المنكرات والأمثلة على ذلك كثيرة، منها فرضية الصيام، وطريقة تحريم الخمر واعتباره أم الخبائث وأس الفظائع والرذائل، وفرضية الجهاد.

خامساً: الترسل في الدعوة وإنكار المناكر حسبما أفاده حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه في الصحيح عندما **قال صلى الله عليه وسلم : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده... إلخ)** فهذا التدرج الإنكاري يقرر أهمية النظام والترتيب في معالجة المنكرات، وهو نوع من الحكمة العملية المفيدة. ولما بعث معاذاً إلي اليمن كما في الصحيحين قال له (إنك تأتي قوماً أهل

كتاب فليكن أول ما تدعوهم شهادة أن لا آله إلا الله وأني رسول الله ...إلخ.

وهنا تردح دعوي تنظيمي، يعلمه رسولنا لأمته، ويؤسس به قاعدة النظام الدعوي، والتربوي، وفقه الأوليات المهجور. هذه كلها شواهد ودلائل على شرف النظام فى الإسلام، وأنه جزء من شرائعه وحكمته ومسيرته في الحياة.

فديننا المنظّم الحميدُ ليس له في شرعه نديدُ

فحينما تتجلى قيمة النظــام وشــاهده ومعالمه فى هــذا الــدين الفريد... كيف لأهله أن يغفلوا عن ذلك، ويمارسوا حياتهم وشئونهم بتخبط وفوضوية وعفوية، أو كما يقول العامــة، (بالبركــة) ؟!! تأمل كيف وضع الله تعالى الصلوات الخمسةِ في اليـوم والليلـة، وجعلها مرتبة متفرقة وأمر لها بمقـدمات من وضـوء وطهـارة كاملة وهيئة نفسانية تسهم في خشوعها وانتفاع الإنسان بها! قال تعـالى: " **إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً** " [النساء:**103**]، وكـذلك كل مقصد عظيم في هـذه الحيـاة الـدنيا لا يمكن تحصـيله والفــوز بــه، دون خطة رشــيدة ومســلك منظم حميــد، ومن ذلك تحصيل العلم الشرعي، وجمعه في هذه الحياة، الذي هو مادة هــذا الدين ونبضه المتحرك، ووقوده المُشِعّ، وشعائره الطاهرة، وأعلامه الزاهية. والذي لا يمكن تجريــده من هــذه الــدين القــويم أو محاولة تحصيله دون وعي رسالته الخالدة وشريعتة الفاضلة.

ومما يؤكد تعسر ذلك، أي جمع العلم بخطة الشتات والضـياع أمـور أخرى ؟؟.

(1) غــارة العلم، وكــثرة مســائله وتعقد بعض قضــاياه الــتي لا تُجمع لأول وهلة أو تضبط في وقت سـير، أو تـؤتي دون أنـاة واسترشاد!

وما أحسن ما قاله بعضهم :

اليـوم شئ وغـدا مثله من نُخَب العلم التي تلتقطْ

يحصل المرء بها حكمةً وإنما السيل اجتماع النقطْ

2- اتفاق العقلاء على استحالة الجمـع، والبلـوغ في اطـار ممـزق مشتت لأن طبيعة العلم تحول دون ذلك.

3- الواقع العلمي لأئمة الاســلام، الــذي جمعــوا باقتصــاد وحصــلوا باعتــدال، ورحلــوا أيامــاً، وقيــدوا أياما أخــرى، وتقييــدهم للفوائد المختلفــة، وتحفظهم في أوقــات مخصوصــة، وحرصـهم على دوام التحصيل والمراجع الدائمية لكل مسائل العلم وقضاياه...

كل ذلك يدل على أن العلم لا يُؤخذ جملة، ومن حاول أخذه جملــة، فاته جملــة، وكل ذلك من طبيعة الشــتات والاســتعجال، والانــدفاع غير المنتظم. وقد جاء في سنن الترمذي عن سهل ابن سعد رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم **(العجلة من الشيطان)** وإذا

علمت أن الاستعجال نواع من الشتات أيقنت إن ذلك نزعة شيطانية هدفها تبديد النشاط، وتقليل المحصول، واهدار الوقت والحرمان من الظفر، وكل أنواع النجاح.
4- اتساع الحركة العلمية الحديثة، وضخامة معارفها المتصلة بالتقنية العصرية، المتمثلة في المكشفات الهائلة، وتطور النظام الحاسوبي، وظهور الشبكة العنكبوتية، وبروز العولمة وتداعياتها، مما يجعل الفوضى والعشوائية لا محل لها في عصر هذا شكله وتلك كلماته وأحاديثه؟؟ فبات هنا أن النظام ضرورة حياتيه، وعامل تقدمي حضاري أصيل.
5- قيام العلم على مقدماته وأسس وصغريات وكبريات، تحتم التدرج فيه، والتعامل معه بأنسام الدقة والتنظيم، وليس الشتات والارتجال!
6- أن الغاية من العلم إتقانه، والنبوغ فية، والوصول لرياض الابداع والامتاع، وهاتان جنتان ساحرتان، الوصول إليهما عزيزاً إلا على خطوات التعقل، والتنظيم، والمنهج المرسوم، فأين نحن من ذلك؟!
7- تقاصر الزمان عن الإحاطة بكل ذخائر العلم ومكنوناته العجبية ومفاخره المذهلة، مما يستوجب حسن الإدارة، والتخطيط ودقة التعامل والتنسيق.

أما بالنسبة لما يتعلق بالأدوية الماحية لهذا البلاء فهي كالتالي:

1) التزام المشيخة.
2) رسم الأهداف.
3) التبرمج العلمي.
4) درء الترف الفكري.
5) المحاسبة الدقيقة.
6) الاتزان النفسي.
7) التوفيق الرباني.
8) الحكمة التحصيلية.
9) الزمالة الطلبية.
10) الانجاز المرحلي.

وقبل الشروع في سرد الأدوية فهنا أشير الى شئ من صور الشتات والفوضوية والعشوائية في الطلب فمنها:

أولاً: التذبذب العلمي: الذي عنوانه الاغتراف من كل علم، والترود منه بقطعة لا تسمن ولا تغني من جوع من حيث يبيت التلميذ النهم

ينتقل بين العلوم، ويختلف على الفنون، متذبذبا في أرجائها ومتردد بين نواصيها لا يعرف موطناً، ولا يستقر على حال!
قد شاقته العقيدة برسوخها، وأغراه الحديث بجماله، وهتف به الفقه إلى جنانه، واستنجده التفسير الى أنواره، ولا يزال ينظر الى فنّ، ويطلب آخر، دون أن يستقر أو يصمد على حال واحدة.
ثانياً: التنويع المشيخي: حيث لا تستقر قدمه عند عالم معين، قد صفا دينه وعلمه بل يكون اليوم عند بعض الشيوخ الأجلة، فيسمع عن آخر برز وتأهل، فيعمد اليه، فيحضر، فلا يروق له، ويرى اعلانات مختلفة لمتقن في أكثر من علم، فيقول هذا الحجة وأستاذ الأساتذة، فيندفع اليه ظاناً أن هذا غايته ومنتهاه فيمكث عنده مدة ثم لا يلبث أن يفكر في التغيير لا سيما اذا بدا له ما لا يرتاح له، أو ما تنشرح به نفسه! والله المستعان.
ثالثاً: الاندفاع الجارف إلى القراءة والتحصيل، وجمع الكتب، دون تركيز في القراءة، أو تنظيم في التحصيل أو انتقاء في جمع الكتب.
رابعاً: تزاحم المتون المحفوظة، فمثلا نجد طالباً يحفظ في القرآن وفي الحديث وفي متن فقهي، وهذا عزيز تحصيله والاستمساك به في وقت مخصوص، وسيثمر حتما كسلاً وتراخياً وافلاسا غير منجبر.
خامساً: الهروع إلى المطولات الضخمة، والموسوعات العميقة، بغية الجمع والتميز والاستيعاب ولكن لذلك خطورته التى تفضي الى الملل، والضيق، بسبب طول الكتاب، ومضي الأوقات دون الوصول أو الانتهاء، والله المستعان.
سادساً: الظهور قبل النضوج، حيث يقرأ عدة كتب، وربما حضر دورةً علمية، أو حفظ متناً كالعمدة أو البخاري فيزين له الشيطان، ويقوده غروره، إلى عقد مجلس إملاء، فيتناقش ويحلّل، وهو لم ينضج بعد، ولم ترسخ قدمه، ولم تشتكِ منه الأسفار ولا عرفته المشايخ بالعمق والخبرة!! ولكنه الاستعجال المدمر، والاندفاع الخاسر، الذي هو ضرب من الفوضوية العلمية والدعوية. ولا حول ولا قوة إلا بالله .
سابعاً: التأليف قبل التأهل! للأسف، يطلب أحدهم العلم سنة أو سنتين، ثم يبدو له أنه قادر على جمع قضية ، أو تحرير مسألة أو شرح مستغلق متن علمي، قبل أن يتأهل أو يمتلك آله التصنيفّ وهذه آفة خطيرة تفضي إلى ما لا يُحمد عقباه من الإعجاب، والغرور، وضحالة المسطور، وحِملان الزلل، والتخبط الأعمى.. الخ.

وينبغي لهذا وأمثاله أن يـدرك أن للتـأليف مقاصد سـامية، وأهـدافاً عليه، لا تؤتي إلا لمن جدَّ واجتهد وسافر واحتمل، وثابر واكتمل.

والله الموفق

ثامنًا: الاستصغار النفسي للعلم وقضاياه، وتصوّر الخلوص منه في سنة أو سنتن، أو بإنجاز متن علمي، أو تحصيل شهادة شرعية دون اتمام ذلك بجهد مكلل، وانقطاع مسطر، ومثابرة خارقة تستغرق من الزمان في طلبه، وتلتمس اللحظات في جمعه، ولا تكلّ ولا تملّ! بل لا تزال تطلب، وتتعلم حتى تتصرم منها الطاقات، وتدنو منها المنايا والفاجعات، قال ابن المبارك رحمه الله (لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل).

تاسعاً: القراءة المبعثرة التى لا تختم كتاباً، ولا تتم فصلاً، ولا تكشف فائدة، بل غاية مناها التقلب بين الكتب، والتنقل بين الأسفار دون تخطيط مرصود، ولا هدف مرسوم ولا طريقة متبوعة.

عاشراً: الحضور الجزئي، للدروس والحلق، بحيث ينسحب قبل إتمام المتن أو قضاء الكتاب، لظروف نفسية أو مشاكل اجتماعية أو تسويلات شيطانية، تتعمد حرمانه، وزحزحته عن طريق العلماء، ومسلك الأفذاذ الكبراء.

حادي عشر: ضعف المقصد العلمي، فهو يقرأ ويجمع، ويبحث ويناقش، دون كشف لهدفه، أو تحديد لمقصده! فماذا تريد أخي الطالب؟! هل هو مجرد العلم والاستفادة ؟! أم الحفاظ على الوقت وتزكية النفس؟! أم جمع الثواب والحسنات؟! أم التعمق في فنٍّ معين؟! أو التميز فكراً وثقافةً؟!

تأمل وأجب الآن لابد لك أن تحدد هدفك، وأن يكون هذا الهدف سامياً ، تهون دونه الهمم السخيات وتتحرق لأجله العزيمات.

ثانى عشر: تقطع الإصرار والهمة، واختلافها من وقت لآخر،إذ تارة يُرى فى العلم جاداً باحثاً، ثم ينقلب مهيناً متقهقراً مدة ، ثم يعود إليه نشاطه وهكذا فهو في دوامة من العلو والسفال، والصعود والهبوط ، لا يدوم له إصرار، ولا تصمد له همة! وسبب ذلك قد يكون راجعاً إلى ضعف في الشخصية، أو محدودية في الثقافة، أو إشكال في التدين وما شابه ذلك.

هذه أشهر مظاهر الفوضوية في طلب العلم، ومعالم الشتات، التي ينبغي السعي في إزالتها، وتطهير الحياة العلمية منها، وهو ما نقصده هنا في هذه الرسالة القصيرة، وقد طالت بنا المقدمة، واسترسل الكاتب دون تنبه. واستيقاظ، ولكن نسأل الله التوفيق، وحسن الختام، وأن يرزقنا الإخلاص فى الأقوال والأعمال، وأن

يكتب لنا النجاة يوم الحساب، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، وصلى الله وسلم على الرحمة المهداة والنعمة المسداة ، نبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحابته الغر الميامين، ومن قفاهم إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيراً.

كتب
أبو يزن حمزة بن فايع الفتحي
القاهرة
15/7/1429هـ
18/7/2008م

أدوية الشتات العلمي

[1] التزام المشيخة :

ومعناه في الحياة العلمية، طلب العلم على الشيوخ، وأخذه عن الأكابر، والدخول من بوابة العلماء الأجلاء، وفي القرآن قال تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام: " **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً** " [الكهف:**66**]، فكان موسى التلميذ وكان الخضر هو الشيخ ، وفي هذا درس تربوي وعلمي يفيد أهمية التتلمذ على المشايخ، والولوج إلى المعارف والكتب عن طريق الأساتذة المتقنين، والشيوخ المعتمدين .

وقد قيل : (من طب العلم وحده خرج وحده) .

وفى ذلك من الفوائد ما لا يخفى منها :

1. أنها سنة نبوية موروثة تناقلتها الأجيال، جيلاً فجيلاً وتناولها الأخلاف عن الأسلاف إلى عصرنا الحالي .
2. الدلالة الراشدة، التى ترسم النهج وتصحح السبيل، وتحذر من الأغلاط وتوصل إلى درب العز والنجاح .
3. اختصار المشوار من خلال التبصرة الصحيحة، والتوجيه المفيد والنصح المشفق .
4. تلخيص العلم وتهذيبه وتشذيبه، الذى ينتهي إلى خلاصة ذهبية، وزُبد منتقاة قد صُفت صفاً مرصوصاً، وتساوت بنياناً محكماً، قد لا يوجد في المصنفات والكتب .
5. السلامة من الأغلاط والعثرات، وقد كان أبو حيان نيشد :

يُظنُّ الغمر أن الكُتْبَ تهدي أخ فهمٍ لإدراك العلومِ
وما يدري الجهول بأن فيها غوامضَ حيرت عقل الفهيمِ
إذا رمتَ العلوم بغير شيخٍ ضللتَ عن الطريق المستقيمِ
وتلتبس العلومُ عليك حتى تصيرَ أضل من توما الحكيمِ

وهذا تشديد على أهمية التزام المشايخن والأخذ عنهم لتصح العقيدة، ويسلم المنهج، وتُعرف السنن،وتهجر البدع، وتلتمس الفضائل، وتتعشق الأخلاق، وهذه غالبها فى جُعبة الشيخ المتقن، والمجمَّل بحسن الدين والخلق.

وقد اشتهر قول بعضهم :
(من كان شيخه كتابه كان خطؤه أكثر من صوابه)
وهذه معناها كما يلى :

أولاً: ان العلم المفتتح بالكتاب، يتعسر فهمه وإدراك غامضه .

ثانياً: وإن من الكتب ما هو عسر العبارة، مبهم الأفكار .
ثالثاً: وإن من الكتـــاب ما هو ردئ الحظ كما في الـــزمن الأولِ، فيصعب على الطالب فهمه واستيعابه .

6. التربية السـلوكية الـتى تحـاز عن طريق الشـيخ الربـاني، ولا تملكها الكتب والأسـفار، لأنها هياكل صــماء لا تُسـتتقى منها الآداب، والأخلاق إلا علماً وقراءة ...

أما الشـيخ فإنه يترجمها عمليـاً فيراها التلامـذة، فيبـدأون يقلـدون شيخهم فيهـا، ويـرون من أدبـه، وسـمته، وحسن أخلاقه ما يجعلهم أكثر تمسكاً، وأعظم تسنناً أكثر من أن لو قرأوا كتاباً في السنن .!

قال ابن سيرين رحمه الله (كـانوا يتعلمـون الهـدي كما يتعلمون العلم)
وقيل: (كان يحضر مجلس أحمد خمسة آلاف، خمسـمائة يكتبون، وأربعة آلاف وخمسمائة يتعلمون السمت).

7. الــروح المعنوية الــتى يغرســها الشــيخ والمعلم، عن طريق الرعاية، والحنـو، والتشـجيع، والتأهيـل، والتـدريب والتصـدير، والتقـديم، والتصـحيح، والموآنسـة، والمجالسـة، والمنافسـة، والمدارسة، والتوجيه والتنبيـه. وتأمل كيف كـان يعامل صـلى الله عليه وســـلم تلامذته بالرعاية والتشـــجيع، والإشـــفاق، والتقديم!

يقــول في أبي بكر رضي الله عنه : (لــوكنت متخــذاً خليلاً لاتخذت أبا بكرخليلاً).
ويقول في عمر رضى الله عنه (لم أرَ عبقرياً يفري فريّه).
ويقول في أبي موسى (لقد أوتيتَ مزمـاراً من مزامـير آل داود)
وقال فى ابن مسعود (إنك غليّم مُعَّلم).
وقال في ابن عباس : (اللهم علمه الحكمة والتأويل) .

8. الإصلاح العقدي, من خلال تبيـان العقيـدة الصـحيحة, والتربية على منهج السلف, والتحـذير من المـذاهب الضـالة والأفكـار التائهة، وفي ذلك ترسيخ لقدمي التلميذ على قاعدة صــلبة لا تهزها الريح ولا تلوثها البدع, ولا تُرهبها الأفكار والفلسفات.
9. التوجيه الدعوي، والإعـداد المسـتقبلي، الـذي يتحمله الشـيخ والمــربي، بحيث يسـتطيع أن يصــنعَ عالمــاً وأن يعد داعيــةً متمكناً, وأن يجعلَ من هذا التلميذ، مُصـلحاً فـذاً يأسى لواقع أمتـه، ويحـزن على مآسـيها فيتسـلح بـالعلم والـدعوة ليعـالج

ضعفها وهزيمتها، وهذه غاية شريفة يعيش لها العلماء الجهابذة. كما قررناه فى رسالة سابقة .

10. الكشف الإبداعي للتلميذ بحيث يوجهه لما ينفعه أو يصلح له , فإن رآه حفاظاً، أوصاه بالقرآن وفهمه، وبالسنة وضبطها ونشرها بين الناس، وإنْ كان فَهِماً مستنبِطاً، رمى به فى بحار الفقه وأصوله، ليعده لمنزلة الإفتاء، والتنظير الفقهي المركز. وكذلك يَلحظ فيه ما يتناسب وقضايا العقيدة، وقمع المبتدعة، أو يوجهة لميادين الإلقاء والترقيق، إذ فصُح لسانه، ورقت دمعته، وخشع قلبه والمهم أنَّ الشيخَ الحكيم هو المدرك لذلك، وهو المحفز لتفجير الطاقة، وتوليد الموهبة والله الموفق.

وعند التزام المشيخة، وثني الركب عندهم يجب الانتقاء الحسن لأفاضلهم، ومن رقت منازلهم، وصحت مسالكهم حتى يحمل مع العلم الأدب، ويرتشف الخلق مع الفقه والتحصيل. قال ابن سيرين رحمه الله كما فى مقدمة مسلم **(إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم)**، فانظر يا طالب العلم عمن تأخذ، وممن تتعلم وتتفقه؟!

ونرشد هنا إلى بعض الضـوابط الأساسـية عند طلب الأشياخ والتلقي عنهم، فمنها :-

(1) الأخذ عمن صـحت عقيدته ، وسـلم منهجه ليصح له إيمانه ، وتزكو نفسه ، وتفوته البـدع والمخالفـات ، لا سـيما إذا كـان طالبـاً لعلم التوحيد وقضـايا الاعتقـاد فإنها لا تُطلب إلا من عالم سـلفي، قد اقتفى السـنة والجماعـة، وتـربى على كتب أئمة الحـديث كأحمد ومالـك. ومن سـار على نهجهم كالبربهاري، وبن خزيمة، وابن منـدة، وعبدالله ابن أحمد وابن تيمية وابن القيم وابن رجب وابن كثـير وأشـباههم رحم الله الجميع. أما المبتدعة فيجتنب الأخذ عنهم قدر المستطاع، لئلا يحمل من أوزارهم، أو يحسنوا له باطلهم، فـإن تمـيزوا بشئ كالحـديث أو الفقـه، واللغة فيأخذ إن تعـذر غـيرهم مع تمـام التوقى وبالغ الحذر، وقانا الله وإياكم شرورهم، وقد جـاء عن الإمام الشافعي رحمه الله (إنما يتكلم في هذا الدين من كان مأموناً على عُقدة هذا الدين).

(2) السيرة الحسنة، والسـمت الصـالح المنبثق من اتبـاع السـنة، ونبذ البـدع، والتحلي بالوظـائف والمحاسن فيكـون المختـار المقـدم متبع السـنة، وقـافى الآثـار، الـذى إذا رَؤي ذكر الله تعالى، والتُمست السنة فى هديه وزيه وكلامه، وأكله وشربه، وقعوده وممشاه.

(3) الضليع المتمكن من علمه وتخصصه ، إذ لا يُسأل الجاهل، ولا يتبع القَـدْم، ولو عظُم دينـه، وكـثر صـلاحه، لأنك قاصد للتعلم وليس لحسن التعبد، وحسن التعبد له اتجاه آخر .

(4) التماس الأكـابر الخـبراء ، الـذين رسـخت أقـدامهم في العلم وتجـاوزوا أهـواء النفـوس، وآفـات الصـغر الـتى تعُـالج بعظم الرسوخ، وصـلاح القلب وطـول الزمـان، والتجـارب المتعاقبة وقد صـحَّ حـديث **(إن من أشـراط السـاعة أن يُلتمسَ العلم عند الأصاغر)**، وقد اخُتلف في هـؤلاء الأصـاغر على أقوال:

- قيل هم صغار الأسنان أفـاده ابن قتيبة رحمه اللـه، وقد جاء عن ابن مسعود رضى الله عنه **(لا يزال النـاس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم وعن أمنـائهم وعلمائهم، فإذا أخذوه عن صغارهم وشـرارهم هلكـوا).** وقد كـان الأئمة يكرهـون تصـدر الصـغار وتحـدثهم بين مشـايخهم، يقـول الحجـاج بن أرطـاه: **(كـانوا يكرهـون أن يحـدث الرجـل، حـتى يُـرى الشيب في لحيته)** .

- وقيل هم أهل البــدع ، وهــذا مــروى عن ابن المبــارك رحمه الله.
- وقيل : هم من يُستفتون ولا علم لهم .
- وقيل : هم المخالفون لمنهج الصحابة .

والتحقيق أن الحديث يشمل ذلك كلـه، فيحـذر من أهل البـدع ومن حــدثاء الأســنان ومن الجهــال، والمفــاليس، **لكن ننبه هنا فى قضية حدثاء الأسنان على أمور .**

1) الأجـدر بهم عـدم الـبروز، حـتى يكتمل نضـجهم، وتنصـحهم مشايخهم .

2) من اضـطر للأخذ عنهم، تلمس أحاسـنهم، من هذبه العلم، وصقل روحه، وأصلح نيته، لأنهم يتفاوتون فيما يبدو للعيــان، **لأن منهم للأسف من اتصف بما يلي:**

1. التطاول على الأشياخ.
2. استعمال الألفاظ الفخمة، التى لا يتفوه بها إلا الراسـخون فى العلم نحو : قلتُ وعنـدي، لا أعرفـه، وحققنــا، وصــنفنا، وقــال الحافظ ابن دقيق العيد رحمه الله:

يقولون هذا عندنا غيرُ جائزِ … فمن أنتمُ حتى يكون لكم عندُ ؟!

مَنْ أنتم؟! ولا زلتم في أول الطلب، ولم ترسخ أقدامكم، أو تشتهر مصنفاتكم أو يُعرف اتقانكم، أو تدرك إمامتكم!! فالحذر الحذر.

3. تعشق الإفتاء والتدريس.
4. شح الأدب ومحاسن الخصال.

ج) عـــدم التكلم والــبروز بحضــرة شــيوخهم، إلا عند الحاجة والإصلاح.

د) تـرك الاسـتنباط الـذاتي، والاكتفـاء بالنقل الموثـق، والعـزو الصحيح للمشايخ الكبار والأئمة المصنفين.

هــ) نســبة الفضل لأهلــه، وتحلية النفس بالتواضع والســمت والإشفاق.

ومن الشعر الجميل هنا:

وما عبَّر الإنسانُ عن فضل نفسهِ … بمثل اعتقاد الفضل فى كل فاضلِ

وإن أخسَّ النقص أن يتقي الفتى … قذى النقص عنه بانتقاص الأفاضلِ

فالصـحابة تلقـوا عن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، فهو شيخهم ومعلمهم، ثم تعلموا ورسخوا، فصار لفقهائهم تلاميــذ، وهم

ابن مسعود، وابن عباس وابن عمر وغيرهم، حيث أخذ عليهم التابعون، ومن التابعين برز تلامذة، كان شيوخهم أئمة التابعين المشاهير كالفقهاء السبعة وطبقتهم ولم يزل يتدافع التلاميذ إلى حلق المشايخ، حتى صاروا بالآلاف وبات كل عصر يمتد بشيوخه وتلاميذه إلى القرون المتأخرة .

لكن فى عصرنا الحالي ، قل الإقبال على الشيوخ لعدة أسباب منها :

(1) هوان قدر الشيوخ، والعلم في أذهان التلاميذ .

(2) تسهل وسائل العلم وزخارتها إلى درجة الشفافية والليونة والوضوح .

(3) احتواء الحاسوب للعلوم الشرعية، وتفننه في عرضها وتخزينها.

(4) الاختراق العلمي الذى أحدثته الإنترنت، واكتساحها للمعارف الشرعية والتاريخية والأممية، صورة وصوتاً، وتبختراً وجمالاً، حتى قيل :

انفجر العالم بالعجيب لا سيما بعد اكتشاف الويب

(5) ندرة العلماء العاملين بالعلم، الذين يُتعلم من دينهم، ويُقتدى بسمتهم، إذ بات المتقنون فريسة للدنيا، واحتوتهم منصابها وزيناتها، والله المستعان .

(6) اعتقاد التلامذة إمكانية البلوغ عن طريق الوسائل الحديثة، التي سهلت العلم، وأوسعت مضايقه، وحلت قيوده .

ونحن ندرك عظم الوسائل الحديثة وأهميتها، التى يسرت سبل العلم وأدنت الكتب والبحوث، والدراسات والمواقع الحية، التى هي منهل التلاميذ وملاذ السائلين والباحثين. لكن لا يعني ذلك الاستغناء عن الشيوخ المتقنين، والعلماء المجيدين، لأن ثمة لديهم فوائد ومحاسن لا تُرى فى الكتب، ولا تدرك عن طريق الإنترنت، أقلّها تحصيل الأدب الحسن، والدين القويم، وحيازة زُبد العلم، وتنمية الحسنات والأجور. والله ولي التوفيق.

[2] **رسم الأهداف**:

وهذا جزء مهم من النظام العلمي المرسوم، أن يرسم الطالب هدفه، ويحدد غايته، وماذا يريد من جده الحازم، ورغبته الجامحة للطلب وقضاياه؟!

هل مقصده الحفظ أو مجرد القراءة، أو فهم قضية مخصوصة؟!

حدِّد هدفك العلمي بشفافية ووضوح، وعاهد نفسك على إنجازه.

هل هو حفظ القرآن، أم أجزاء منه، أو ضبط صحيح البخاري أو عمدة الأحكام، أو جرد زاد المعاد، أو تاريخ ابن كثير؟!

هـذه أهـداف معتـبرة، ولكن ينبغي أن تـراعي في تحديد الهدف ورسمه ما يلي:

(1) كونه أساسـاً علميـاً في مرحلة الطلب الأوليـة، فلا يبـدأ بالفروع، والهامشيات والنوادر، والملح.
(2) أن يكون واضحاً محدداً يمكن إنجازه في مدة مخصوصة.
(3) تناسـبه مع الطاقة العلميـة، والزمنية فمن يـروم حفظ الصـحيحين مثلاً عليه أن يقـدر الـزمن المناسب لحجمهـا، وما يتكافأ مع قدرته الذهنية واستعداداً نفسياً.
(4) إمكانية تحقيقه والوصـول إليـه، بلا تطويل ولا تعقيـد، ومن المتسحسن كون الأهـداف قريبة المـدى لا سـيما ما يتعلق بالحفظ وضـبط المختصـرات المشـهورة. وحضـور دورات علمية وجمع رسائل صغيرة، ولقاء شيوخ متميزين.

ومن الأخطاء في رسم الهدف ما يلي:

(1) كون الهدف بعيد المدى، أو مشروعاً ضـخماً، ولا يتلاءم مع المرحلة الأولى في الطلب. فمثل ذلك يُعـدّ خطـأً منهجيـاً وينبغي تـأخير المشـاريع الضـخمة لأحـوال علمية وزمانيه مناسبة، يحسنها كبار العلماء والمشايخ المتعمقون.
(2) صِغَر الهدف، وطول المدة الممنوحة له كمن يحاول قراءة صـحيح البخـاري المختصر في شـهر، وحقه دون ذلـك! أو يتحفظ عمدة الأحكام في سنة وقدرة شـهر ونحـوه، وربما أقل من ذلك عند ذوي الهمم العاليات والنفوس التواقات.
(3) تكاثر الأهداف، بحيث تجد له أكثر من غايته ومقصده فلديه حفظ في كتـاب اللـه، وحفظ في السـنة، ودرس فقهي، وآخر في الأصـول وهـذا لا يسـوغ ولا يُتـدارك! والـواجب الاقتصـار على هـدف أو هـدفين لتتمكن النفس، ويحتفي الجهد ويتحقق الإنجاز.

ورسم الأهـداف لا يقتصر على مبتـدئي الطلب فحسـب، بل مسلك يعتمده أهل العلم والبـاحثون المتقنـون، فيرسـمون أهـدافا، ويختطون مشاريع علمية، وأخرى بحثية وتحقيقبه، ينتجونها في مدد قصيرة وطويلة حسب الجهد والاستعداد، والطاقة.

فعلى سبيل المثـال كـان لـدى الشـيخ المحـدث الألبـاني رحمه الله هدف (تقريب السنه لعموم الأمـة) ابتـدأه من عشـرات ؟؟ وقد أفلح فيه وأنجح، اذ خـدم السـنة خدمة جليلـة، حيث درس أحاديثهـا، وحقق مروياتهـا، وأبـرز ثمراتها، ومن ذلك:

1- دراستة للكتب الستة.
2- إبـراز السلسـلة الصـحيحة أو الضـغيفة في مجلـدات متتالية.
3- إخراج موسوعة إرواء الغليل التخريجية، الذي يدل على علو مكانة الشيخ الحديثية وقيمته في الصناعة الحديثة.
4- خدمة الـترغيب والـترهيب للمنـذري، وكـذلك مشـكاة المصابيح.
5- وكتب أخرى تفوق الحصر، يطول المقام بـذكرها. يعمد الكـاتب إلى تناولها في رسـالة وجـيزة، وبيـان صـفات الشيخ التأليفية، نسال الله العون والتسديد.

لكن المهم أن الشـــــيخ رحمة الله نجح في تحقيق هدفـه، وقـرب السـنة لعمـوم المسـلمين، ولم يُتـوف إلا وقد أبـرز عشـرات الكتب الـتي يحتـاج إليها المسـلمون، ومما ساعد على نجاحه :

1- اعتماده على الباري تعالى، حيث حظى بتوفيق الله له.
2- همته العاليــة، الــتي من طــالع ســيرته وبحوثه أدرك عمقها وسمو عمدانها.
3- إصراره الشديد، رغم الكِبَرُ والسقم والفقر الذي لاحقه دهراً من حياته.
4- انظر (حياة الألباني) للشيخ محمد إبراهيم الشيباني.
5- انقطاعه العام لهذا الهدف، وعدم مزاحمته بمشاريع أخرى.

ومن المشاريع الضخمة لأهل العلم ، والمرشحة في هذه الأزمنة ما يلي:

(1) إعـداد علمـاء المسـتقبل، عـبر بـرامج مكثفـة، ودراسـات تأهيلية تستغرق سنوات عديدة.
(2) نشر الدعوة إلى الله، وإيصال رسائل معينة لجيل الشباب.
(3) مكافحة البدع والخرفات التي عمت مجتمعاً معيناً.
(4) إنشـاء جامعة اسـلامية، تفتح أبوابها لأبنـاء المسـلمين بلا تحزب ولا عنصرية، يـدعمها تجـار المسـلمين وتـرحب بهم بسوم ميسورة.
(5) إعداد الموسوعات العلمية، تفسراً وحديثاً، وفقهاً، وتربيــة، وتاريخــاً، بحيث تكــون شــاملة محــررة، حســنة الإخــراج والتوثيق.
(6) إنشاء المساجد الحاوية لأدوار العلم والتربية والإصلاح.
(7) تأسيس المكتبات الخيرية الجامعـة، الـتي تـرحب بـالقراء، وتعين البــاحثين، وتفتح الآفــاق لطلبة العلم جــداً وعلمــاً وتدريساً وتأليفاً.

(8) تقييد الشـــروحات المطولة والمعمقة على بعض المتـــون حسب معيار علمي رزين ينتفع به الناس وغيرها من أبواب الخير.

والمقصد الــذي نركز عليه هنـــا، أن رسم الهـــدف فـــرع التخطيط الرشـــيد، والتنظيم الحكيم الــذي يـــرتب حيـــاة الطـــالب، ويضـــبط مساره، ويحفظ جهده ونشاطه. وهو ضرورة منهجية لوعيه واتزانه، والظفر بأمانيه ورغباتـه. وهو خطـوة اسـتراتيجية لمعالجة الشـتات العلمي والفوضوية الثقافية.

ويمكن أن نقرر فوائد رسم الهدف فميا يلي:

(1) حفز النفس إلى غاية واضحة، وسبيل مكشوف، لتشـتد الهمـة، ويقوي الاصرار، ويتجرد القصد.

(2) إغلاق الأبـــواب الأخـــرى، الـــتي قد تســـتهوي النفس، أو يزينها الشيطان ليشتت البال، ويفرق الهمة.

(3) تربية النفس مع الأناة والرسم والاعداد.

(4) إسعادها نفسياً بالظفر بالمأمول وتحقيق المقصـود، مما يعـني الرضي بـــالمنهج، والتشـجيع على المواصـــلة، وابتكـــار أهـــداف أخرى عظيمة، وهذه فائدة جد نفيسة.

(5) اختيـار صـمود العزيمـة، واصـرارها على البلـوغ والإنجـاز، فـان صـــمدت بلغت منـــائر النجح وان كلت وتعبت قـــررت عجزها وضعفها عن المواصلة! وعلى قدر أهل العزم تأني العرائم...

(3) التـــبرمج العلمي: ونعـــني به المخطط المرســـوم. والبرنامج المرقوم للطلاب والـذي يعتمـدون مصـابيح ؟؟ بها، ويصنفون آثارها ومعالمها، وهو شامل لما يلي:

1- المختصرات المرشحة للحفظ.

2- الكتب النافعة للسرد والقراءة.

3- الشروحات المختارة لحل المتون المحفوظة.

4- أسـماء الأعلام المهمـة، والـتى تُشـتري كتبهـا، وتصـدق العلاقة معها.

5- تــرتيب الأوليــات في الحفظ والقــراءة، والتــدقيق والتأمل مع تحديد المدة المطلوبة، والوقت المحدد لذلك.

وقد كتب المشايخ في ذلك برامج مختلفـة، وحـددوها بفـترات زمنية معينــة، ومن أوائل من أبــان ذلك الامــام الشــوكاني رحمه الله في رســالته الماتعة (أدب الطلب ومنتهى الأرب).

وفي عصــرنا الــراهن، كــثر الســؤال عنها ؟؟ الخفة والوصول، فكتب عدد غير قليل من المشايخ والدعاة من أشهرهم:

1- الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله في حلية طالب العلم.

2- برنامج تفصيلي لطالب العلم للشيخ الغيور حامد العلي.

3- كيف تطلب العلم للشيخ عائض القرني.

4- المنهجية في طلب العلم للشــيخ صــالح آل الشــيخ، وغيرها المناهج والـبرامج العلمية تجـدها مسـطورة في موقع (صـيد الفوائد) مع كتب نافعة وتوجيهات مركزة للطلاب.

وقد كتب راقم هــذه الرســالة برنامجا لمــدة ســنتين رســـمه (المنهج ؟؟ للطـــالب الـــوفي) ؟؟ تدريسه اتضح العلاج للشـــيخ صد ؟؟ خـــان في جـــامع الملك فهو ؟؟ عسير.

وينبغي أن يراعي في سياق البرنامج العلمي ما يلي:

(1) مناسبته للفئة الطلابية المختارة عمراً وعقلاً واستعداداً.

(2) إذا كنتب للضـــليعين روعي فيتجـــاوزهم للمراحل الأولية في الطلب.

(3) تحديد البرنامج بفـترة زمنية معينـة، والـذي نـراه عـدم تجـاوز سنتين أو ثلاث سنوات كحد أقصى للبرنامج، ليتسنى تحقيقــه، ولا يُمل طوله حيث الهمم الضعيفة، والنفوس مشغولة.

(4) وضـوحه الجلي، وخلـوه من كل صـور التعقيد والمباينـة، الـتي تتناسى العصر، وتلغي شئونه وقضاياه، بمعنى أن يلبي رغبـات طالب العلم المعاصر، فيلبي نهمته العلمية وحسه الاجتماعي.

وأما شروط من يصوغ هذا البرنامج فيمكن ؟؟ فيما يلي:

أولاً: القدرة العلمية والبيانية على الصياغة، من حيث معرفة آليات العلم، ومصـــنفات العلـــوم، ووعي مراحل الطلاب، واســـتعدادت الشباب لذلك.

ثانيـاً: الحكمة العلميـة، الـتي تجعله يحس الاختيـار والـترتيب، فلا يقـرر مثلا كتبا لا تَـدرس في بلـده ولو استحسـنها، ولا كتبـاً عميقة للمبتدئين ولو آثرها وهواها. ولتكن على منوال المشايخ والعلماء.

ثالثـــاً: ســـلامة منهجه وعقيدته بحيث يوصي بما يصـــلح عقائـــدياً وفكرياً، جارياً في ذلك على منهج أهل السنة والجماعة.

وعند تخطي البرنـامج العلمي الأول، وتجـاوزه بنجـاح لا يعـني ذلك (ولادة عالم فـذ) أو (طـالب علم ضـليع)! كلا! بل هو مفتـاح فُتح به باب من العلم، وحيزت ثماره وأزهاره، وبقي بعد ذلك الانفتاح على العلوم بقراءة الشـروح للمختصـرات المحفوظـة، وتخـير التخصص العلمي، أو كتابه برنامج آخر أعمق وأدق ينتقل به التلميذ إلى سـلم آخر، ولما يبلغ الذروة القصوى أو الكمال المطلق، لأن العلم بحــره لا ساحل له.

وللشعبي رحمة الله مقولة حسناء. يقول:
(العلم ثلاثة أشبار، فمن دخل الشبر الأول تكـبر، ومن دخل الشـبر الثاني تواضع، ومن دخل الشبر الثالث علم أنه لا يعلم شيئا).

(4) درء الترف الفكري:

ويقصد به الشئ الزائد على مقاصـــــهد العلم ومضـــــامينه الرئيسية، والذي يأخذ شكل المكملات أو التحسـينيات أحيانـا، أو ما ليس له علاقة بالعلم، كأن يكون بات مهجورا أو غير محتـاج إليـه!! وهذا الترف على التحقيق، هو ضارٌ بتوجه التلميذ العلمي، وإن تلذذ ببعض مفرداته، لأنه ربما عـوق عن أصـول العلم وكبرياتـه، وشـغل مســاحةً من حياته الجديــة، واســتفرغ قــدرا غــير هين من همته وطاقته.

ولذا لا يُنصَح به في أول الطالب على كل حـال، ومنه ما يصـلح أن يكــون متنــاولا أوقــات الراحة والســآمة على ســبيل التفكة والاســترخاء كما كــان يصــنع أهل الحــديث في خــواتم مجــالس التحديث يتفكهون بنوادر الأخبار ولطائف القصص والأشعار.

وهو ما عناه الحافظ العراقي في آلفيته بقوله:

واستمس الانشاد في الأواخرِ   بعد الحكايات مع النوادرِ

وقولنا (الـترف الفكـري) هو من المركبـات الحديثـة، ولم يكن معروفـاً بهـذا المصـطلح في السـابق، ولكن عُـرف بأسـماء أخـرى منها.

وإنما سُمي ترفاً باعتبار كونه فضـلةً زائـداً. قد اسـتُغني بغـيره عنه كصـاحب الـبيت الـذي كمل ذخـائره، ثم زاد عليه زينـات كمالية ، ومفاتن شكلية ليست من صميم متاع البيت.

أوذاك الذي لديه الملابس الجيـدة ثم يزيد عليها أخـرى. فـاخرة وأشـباهاً زائـدة، لا يُحتـاج إليها إلا كنـوع من المفـاخرة والافتتـان الدنيوي، والله المستعان.

والترف الفكري في المعلوم يأخذ صورا شتى منها:

1- القراءة في كل ما هبَّ ودبَّ والإيغال في الغـرائب والنـوادر والمتسحدثات والمستنكرات، وما تنشره الصحف والمجلات من أشـــــياء لا يقرأها إلا أربابهـــــا، ومع ذلك تجد من يقلبها،ويفتش بين جوانحها.
2- الاغراق في هزلية العصر المنشورةً المتضمنة صحفاً تافهة، أو مجلات خاوية، أو نشرات سقيمة، أو إصدارات عابثة.

وليس المقصود هنا تقليل كل المنشور العصـري، وإنما التنبيه على الهزلي فيه، الذي يهدف للاتجار، وتبديد الأوقات، وحـرق الطلقـات، لأنه الطاغي والرابي على جدية العصر وجودته وحيويته، وهذا يمثل شكلاً من أشكال انحطاط الأمة، والله المستعان.

3- الغـرام الفـاحش بشـراء الكتب والإصـدارات المتنوعـة! وربما يقول قائل. إنها صفة حميدة، والكتب عائـدتها قيمة على أصـحابها،

وقد اتصف بها بعض الأعلام كالإمــام ابن قيم الجوزية رحمه اللــه، واشتهر أعلام بضخامة مكتباتهم على نحو الإمام المحـدث ابـراهيم الحربي رحمه الله .

ولكن ذلك لا يعــني صـحة المســلك، ولا يعــني أنهم اشــتروا ما لا يحسن ويطيب، وإنما نحسن الظن بالأوائل أنهم لا يشــــترون إلا ما ينفعهم، ويصـلح نفوسـهم ويغـذي أدمغتهم وهـذا ديـدن العقلاء في كل زمان ومدة.

وقد قـــال شـــيخ الإســـلام ابن تيمية رحمه الله في (الوصـــية الصـــغرى) الـــتي كتبها للشـــيخ أبي القاسم المغــربي عند ذكر أحسن الكتب: (وقد أوعبت الأمة في كل فن من فنـون العلم إيعابـاً فمن نـور الله قلبه هـداه بما يبلغه من ذلك، ومن أعماه لم تزده كــثرة الكتب إلات حيرة وضلالاً).

والمحظـــور هنا هو شــــراء كتب عديمة النفــــع، أو لا يكــــاد يفتحها الإنسان إلا مـرة في العمـر، وهو مما ابتليت به في المرحلة الأولي من الطلب فلقد اشــتريت أشــياء هزيلــة. وأشــياء عديمة النفــع. وأشياء غريبة، وأخرى مستعسرة !!

آراها الآن ولا أعتزبها كغيرها من المصــــــنفات المتينــــــة، والكتب الثمينة.

وخلاصة القـول: أن الغـرام بـالكتب حسن في الطـالب، إذا اســتطاعه وســلم من غوائله الجــارة الى ضــار وخيم ؟! أو هزيل سخيف، أوغريب شنيع!

وما سوى ذلك محمود نبيل، ومشكور فريد، ومن السـخف الفكـري وليس الترف الفكري إقتناء كتب المبتدعة التي تُزكم الأنف وتكــدر الروح، ككتب الرافضة والصوفية، والباطنية الـتي عـرَت عن العلم، وجانبت الحق، واختطت الهـوى قائـداً ودليلاً. فهـذه لا يفـرح بها ولا كرامــة! ولا تُقتــنى إلا على وجه الــرد والســخف والنسف العلمي والعقائدي لها. ولا تنزل عليها مقولة الإمام أحمد الشهيرة (سـمعت أن قــلَّ رجل نظر في كتــاب (الا اســتفاد منهــا) لأنها منبع الضــلال والباطل والتيــــه، فكيف تُجــــنى منها الفوائد أو تُســــتخرج الــــدرر والمقاصد؟!

وإنما تحمل كلمة الإمام رحمة الله على الكتب النافعات، والأسـفار المكملات التي لا تكون مصدراً للانحراف والبغي والجهـالات، حـتى لو قل علمها، وهان سبابها، وكـثر إغرابهـا.. فإنها لا تخلو في النهاية من فائدة، أو عائدة، أو حفز أو تذكير أو إيقاظ، أو تبصـره أو تنبيـه، أو تبشير، أو تحذير، والله الموفق.

وبعض كتب الضـــالين والمبتدعـــة، قد تبـــدو فيها فوائد ولكنها قليلــة، في مقابل الضــلال المتضــخم فيها والفســاد الناشئ منهــا،

ويندرج علهيا قوله تعالى في الخمر، "**وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** "[البقرة:219]، وقوله صلى الله عليه وسلم في الخمر لمن سأل أن يتخذها دواء، فقال: **(أنها ليست بدواء أنها داء).**

فحاذرنْ يا أخيَّ العـلم من كتبٍ	فيها المقال بختم الزيغ مرقومُ
وحاذرنْ من معان فيها قد لمعت	ألا تغـرك فالمقـدام موهـومُ

ونظير كتب المبتدعة كتب أفاكي العصر، ومدعي الحداثة، والتنــوير من أصــحاب الاتجــاة العَلمــاني واللبــيراللى والاشــتراكي الــذين انسـلخوا من دين أمتهم وتاريخها وعروبتهـا، ومضـوا يهرعـون وراء الغرب الصليبي، وعلتهم بمدنيتة، أو يصلون لاكتشافاته، أو يحققون حريته وديموقراطيته!

فهناك نوعان من الكتب هنا:

(1) كتب المبتدعة والضـــــالين من الطوائف القديمة الزاعمة الانتساب للإسلام وأتباعهم المعاصرين.

(2) وكتب العلمانيين ومتنورة العصر بـزعمهم، فهـذه لا تقتـني إلا من المختصــين عقائــدياً، والمنصــفين فكريــاً، لينــبروا لنقــدها، وكشف هزالهــا، وتعريه زيفها وتخبطاتهــا، وأعلام السنة والأثرقد وقفوا لها بالمرصـاد، ولن تخلـوا الأرض من قـائم لله بحجـة، يـذب دين الله ويعضب لحرماتـه، ويعـرّي صـناع الزيف والباطـل، وطلاب البغي والعسف والسـخافة والسلام.

أما الكتب المخلوطـة، والـتي كـثر خيرهـا، وعظم شـرها، فهـذه لا يُنصح بها لصغار الطلاب، وناشئة العلم وإنما يأخـذها المجيـدون من العلمــاء وطلبة العلم، الــذين لا تنطلي عليهم شــبهات القــوم، ولا زخارف القول ولا لوامع الكلم.

ومن هـذه الكتب فيما يبـدو في حيـاة الأمـة، ومشـهورة في الكتب الإسلامية.

1- إحياء علوم الدين للغزالي.
2- تفسير الكشاف للزمخشري.
3- مفاتيح الغيب للرازي.

وحبــذا لو أن علماءنا يتجــردون لها فيحــررون ما فيها من الحــق، ويبرزون زيفها، وتُطبع بحواش كاشفة، وتعليقات واضحة، كيلا تــزل فيها أقدام بعض الأغمار، أو تتهاوى فيها أفئدة بعض الضـعفاء، قـال الإمــــام ابن قدامة رحمه الله (**ومن الســــنن هجــــران أهل البدع**،**ومباينتهم وتــرك الجــدال والخصـومات في الــدين، وتــرك النظر في كتب المبتدعــة، والإصــغاء الى كلامهم وكل محدثة في الــدين بدعــة)** (تحــريم النظر في كتب أهل الكلام).صـ 48.

(4) الغوص في علوم الآلة، التي هي مفتاح لفهم العلوم الأساسـية نحو اللغة وأصول الفقه والتفسير ومصطلح الحديث.

والترف المقصود فيها له أشكال:

1- قــراءة مراجع كثــيرة منهــا، والتهمم بفهمها وإشــكالاتها على حساب الأصل.
2- المكث فيها دهـــراً طـــويلاً وتحفظ منظوماتها العلمية الـــتى تستغرق الزمان، وتقتطف زهرة الشباب.

ج- التصنيف المطول فيها، وسحب الأجيال إلى ميـدانها، وتحـذيرهم من إضاعتها على حساب اهمال الأصول، وكبريـات علـوم الشـرع، وهذا سوء فهم لمنهجية طالب العلم!!

د- عدم الاكتفاء بمهماتها، وجمع غرائبها ومهجوراتها وما عُلق عليها من نكـات وشــروحات وتعليقــات. مع أنه كــان يكفي شد ســرج أساسياتها، وحصد غراس معالمها ومهماتها.

هـ- جمع مُلح العلم ونوارده، وأشعاره العلمية والطريفة وما شابهها على حساب التأمل العلمي والمتانة التثقيفيـة، حيث يظل الطـالب لا همة له إلا في تلك المُلح والمســتظرفات! و ما كـــان ينبغي أن يستغرق بها الزمان، أو يضيع بسـببها الأصـول والأساسـيات!! وحق هذه الملح الاقتصاد، واستعمالها وقت الراحة والإجمـام وعند تجديد الهمة والنشاط.

(5) المحاسبة الدقيقة:
ويعـني بها في الحيـاة العلميـة. رصد الـتزام النفس بالبرنـامج المعقود، والأهـداف المرسـومة! وهل التزمتهـا، وحققت من خلالها مبتغاها، أم أنها قصرت وهـانت وتكاسـلت؟! وهـذه المحاسـبة نـوع من التقـويم والاختبـار الـذي يحتاجه الطـالب السـالك إلى ميـادين العلم والمعرفة، **وتكون المحاسبة على ما يلي:**

1- المدة المحدودة للإنجاز والتفوق.
2- المختصرات المزمع حفظها.
3- الكتب المقصود قراءتها وختمها.
4- قيمة المحفوظ والمقروء والمكتسب خلال التجربة العلمية.
5- مــدى اســتهداء النفس، وتزكيّها بــالعلم المزيــون، والخــير الممنــون، وهـذه أجل ثمـرة يحاسب المـرء نفسه عليها لأن اقتضاء العمل، ونهاية الجد والبذل والتطبيق والالتزام ولا خير في علم لا يرسخ مع صـــاحبه، أو يلتصق مع نفســـه. قـــال تعـالى"**قَـدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَـدْ خَـابَ مَن دَسَّـاهَا(10)** [الشمس:9-10]، وهذه المحاسبة فـرع من الجد المسـلوك في الطلب، لأنها تكشف مدى الالتزام والتفـوق والنجـاح وإلا فلا فائدة من البرنامج االعلمي حينئذ!!.

قال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاســبوا وزنوها قبل أن توزنــوا) وفي هــذا المعـني قـول ميمـون بن مهـران رحمه الله (لا يكـون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشـريك لشريكه) .

وأما مقومات نجحاج المحاسبة وفاعليتها ما يلي:
أولا: الاهتمام الذاتي بهـا، والإصـرار على تطبيقها وممارسـتها تجـاه كل نشاط علمي وسلوكي.
ثانيا: تسجيل ذلك في مفكرة صـغيرة وتأشـيرها بما يفيد الإنجـاز أو الإخفاق.
ثالثا: اعتبارها جزءا من البرنامج العلمي المتبـع، وعمـاداً من أركانه ودعائمه، وأنه لا نجاح إلا بها ولا تقدم إلا بتفعيلها.
رابعـــا: نبذ التكاسل والتســـويف، الطـــارئ عليها وعلى العملية التثقيفية وحمل زمــام المبــادرة تجاههــا، بالاعتمــاد على الله أولاً وآخراً، وسؤاله الفتح والسداد، وامتطـاء العزيمة الصـادقة، والإرادة القوية، والتفكر في الخسائر الناتجة من جراء الإهمال والفوضـوية. ومما يربي على حسب المحاسبة، واسـتعمالها كضـرورة حياتية في دنيا المـؤمن المبتغي ثـواب الله تعـالى، مطالعة سير الجـادين من

أهل العلم، والأفذاذ الذين عرفوا بعلاء الهمم، وشموخ الرغبات، نحو الخلفاء الراشدين، والفقهاء الأربعة، والأئمة المتقين كالبخاري واسحاق وابن معين وإبراهيم الحربي، والدراقطني والخطيب وابن عبدالدايم وابن عقيل وابن الجوزي والنووي والسرخسي، وابن تيمية وابن القيم وابن حجر والسيوطي وغيرهم.

ومن المعاصرين أحمد شاكر والمعلمي، ومحمود شاكر والألباني وابن باز وابن عثيمين والندوي وأشباههم من أرباب الجد والجلادة فمثل هذه السير، مطالعتها من الأهمية بمكان، **وسيخرج التلميذ بالانطباعات التالية:**

(1) عمق السخاء الجسدي والروحي، المبذول من قبل هؤلاء في تحصيلهم وعبادتهم وسائر شئونهم.

(2) الهمم المشتعلة، والساعية إلى تحصيل الخيرات، ونبذ الحسرات.

(3) جب الإصرار والإتقان، ورفض كل صور التسويف والعشوائية.

(4) استثمارهم للأوقات فيما ينفع، والبخل بساعاتها، أن تذهب سدى، أو تغادر دون فائدة وإعجاز.

(5) محاسبتهم لأنفسهم، وسؤالهم عن النقير والقطمير، مما يعني حرصهم على منهاجهم العلمي والسلوكي، وعدم ارتضائهم للكسل والشتات، وكل أشكال الفوضوية التي لا تمت للانضباط والحزم بصلة.

(6) **الاتزان النفسي:**

ومعناه ضبط جماح النفس الهممي، واندفاعها التحصيلي بحيث تكون متزنةً معتدلة، لا تسابق الريح فتطغى ولا تماثل الدابة فتتأخر وتنأى ولكن: (القصدَ القصدَ تبلغوا). لأن ثمة نفوس تصاب بالنهم في القراءة، والبحث والتقييد، وإذا لم تزن ذلك وتضبطه، يخشى إصابتها بالفتور والملل، الذي يقعدها عن السير، ومواصلة الطريق. **وقد صح قوله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ لكل عمل شِرّة وإن لكل شِرّه فترة، فمن كانت شِرّته إلى سنتي فقد أفلح، ومن كانت شِرّته إلى غير ذلك فقد هلك). أخرجه ابن حبان بسند صحيح.** والشِرّة بالكسر والتشديد أى حرصاً على الشئ ونشاطا فيه، والفترة الوهن والضعف. **وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم. (ان الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسدِّدووا وقاربوا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة).** وفي الحديث الحسن **(إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق) أخرجه أحمد والبيهقي.** والمراد هنا الترفق بالنفس، وحملها على الإتزان وليس الايغال والإنحراف الذي قد يهدد كيانها، ويذهب عنفوانها، ودافعيتها.

وتكمن فائدة الاتزان النفسي في أمور منها:

أولاً: ضبطه لهيجان النفس وشرارتها النهمية والتجميعية .
ثانياً: إكسابها نوعاً من الراحة والسكون والاطمئنان.
ثالثاً: تعليمها الرزانة وحسن التفكير، والتأمل البعيد.
رابعاً: المحافظة على مذخوراتها القيمية ومحصولاتها السلوكية.
خامساً: تذكيرها بمهام أخرى ومتطلبات لا تقل أهمية عن النهم العلمي، وهي بمثابة حقوق شرعية مثل: بر الوالدين وإصلاح العبادة، وصلة الأرحام، والإحسان، وسائر طرق الخير، التي من خيرها تسهيل العلم، وحلول البركة فيه، **وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم لابن عمر : (لا تفعل، وصم وأفطر، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزَورِك عليك حقا) أخرجاه في الصحيحين.**

وفي قصة أبي الدرداء مع سلمان رضي الله عنهما قال سلمان : (**إنَّ لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فاعط كل ذي حق حقه**) **أخرجه البخاري.**

وهذان الحديثان أصل في مسألة الاتزان النفسي، وتوزيع الحقوق والواجبات، وأنّ الحق العلمي ليس مقدماً على حقوق

أخرى، ذكرتها الأحاديث، وفهمت من مقررات الشريعة، ولا يجوز بحالٍ صرف الزمان كله في طلبه، وتحقيقه على حساب إهمال الجوانب الأخرى، التي هي واجبة ومؤكدة.

وهذا الاتزان النفسي، يُسهم بدرجة كبيرة بإذن الله، في القضاء على الشَتات العلمي، وتحويل دفقه السريع، إلى نوع من التأمل والترسل والترتيب، وهو ما تحتاجه الحياة العلمية.

وقد قيل (من أراد العلم جملةً فاته جملةً) فالعلم مسألة ومسألتان وحديث وحديثان، ونظام وتنسيق، وتعقل وترتيب.

قال الخطيب البغدادي رحمه الله: **(ولا يأخذ الطالب نفسه بما لا يطيقه، بل يقتصر على اليسير الذي يضبطه ويحكم حفظه ويتقنه).**

وقال ابن شهاب الزهري رحمه الله **(من طلب العلم جملة فاته جمله، وإنما يدرك العلم حديث وحديثان).**

وقال شعبة أبو بسطام رحمه الله (**كنت آتي قتادة فأسأله عن حديثين، فيحدثني ثم يقول أزيدك، فأقول لا، حتى أحفظها وأتقنها**).

وقد استنكر الامام مالك رحمه الله على طلابه حفظ الموطأ في أربعين يوما فقال لما عرض عليه الأوزاعي وغيره في أربعين يوما (كتابٌ ألفته في أربعين سنة، أخذتموه في أربعين يوماً! قلما تفقهون فيه)!!

وهذا مسلك عقلاني وذكي في حياة السلف قبلنا لأنهم أدركوا سَعة العلم وامتداده الفسيح، فعمدوا إلى التنظيم العلمي، والانتخاب الفقهي عبر سلم منهجي منظم. يحفظ الهمة، ويضبط الاتزان، ويورث الثمرة بإذن الله تعالى وإنما نبهنا عليه هنا، لأن الاندفاع التحصيلي قد يشق دربه ويظن أنه لا ينقطع ، أو قد يسارع يلى نوع واحد من العلوم لكنه جارٍفية لا يلوي على أحد قد امتطى المفازة، وركب المضيق وينتهي به الأمر إلى النصب والاستحسار أو النكوص والإفلاس!

والتزام الاتزان، يعني القضاء على كل صور الشتات والفوضوية، فيتخلص الطالب من كل من:

1- الفوضوية وعبثيتها.
2- والارتجال وحماقاته.
3- والاندفاع وندماماته.
4- والعشوائية وحسراتها.
5- والتخبط وحيراته.
6- والشتات ومداولاته.
7- والاضطراب وعدم استقراره.

8- والتذبذب ومكدراته.
9- والتردد وتقلباته.
10- والاستعجال ومفاجآته.

فهذه عشـرة أسـقام تتنـاغم مع الشـتات العلمي، ليقضي على الهمة العاليــة، والنفس المتوقــدة، والــذهن الثــابت، والنشــاط المتسـارع ولا يقرها إلا شئ كالنظـام المسـدد والبرمجة المحـددة، بعد توفيق الله ورعايته.

إذا لم يكن عون من الله للفتى	فأول ما يقضى عليه اجتهادهُ

وعون الله اذا فاض عبقه على المؤمن والمؤمنة غشيته الرحمـات، وحلّت عليه منائر البركة، وأشرق السداد، ولمَعت الهداية، وبـزغت الثمـار، وشعشـعت الأزهـار، وتلألأ منها الرحيق الصـافي، واسـتلم الشـافي، الـذي هو عصـارة العلم، وزبـدة الترحـال، وقطـاف الجد والمثـابرة، نسـأل الله تعـالى من فضـله " **مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا** " [فاطر:2].

(7) **التوفيق الرباني:**

وهذا ترياق هام وبلسم مغنٍ عن كل دواء وعقار، وإنما تأخر لاشتهاره ووضوحه بجلاء في الحياة العلمية، كالشمس في رائعة النهار وأسسه ما يلي:

أولاً: تجديد الاخلاص لله تعالى، واحتساب خطوات الطلب والجد والقراءة في سبيل الله تعالى، واعتقاد أن النية الصالحة خير من مئات الأعمال، وهي مفتاح كل توفيق، وإنجاز، ونجاح.

قال تعالى : " ***فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ*** "[الزمر:2]، وقال ابن عباس رضي الله عنه : **(إنما يحفظُ الرجلُ على قدر نيته)**.

ثانياً: توظيف العلم والسنن على النفس والجوارح، والمسارعة في امتثال الحقائق، والتحلي بالموروثات الدينية، التي هي عنوان الاهتداء، وحصول التزكية.

قال الحسن البصري رحمه الله **: (كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يُرى ذلك في تخشعه وهديه ولسانه ويده) .**

ثالثاً: نبذ آفات النفوس، ومكدرات العلم، من الكبر والمفاخرة والتعالي والاغترار بالمراتب الدنيوية والحظوظ النفسية.

رابعاً: المواظبة على فرائض الأعمال والنوافل الداعمة، والمرسخة على الطريق، والفاتحة منافذ الخيرات والرحمات وفي الحديث القدسي : (**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**).

خامساً: الدعاء المستكين،والدعاء بين يدي الفتاح الغني والموفق المانح لكل خير وسعادة وارتقاء وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (أقرب ما كيون العبد الى ربه وهو ساجد، فاجتهد وان الدعاء).

وإني لأدعو الله والأمر ضّيقُ	عليَّ فما ينفك أن يتفرجا
وربَّ فتىً ضاقت عليه وجوهه	أصاب له في دعوة الله مخرجا

وصح قوله صلى الله عليه وسلم: (**الدعاء هو العبادة**) فانطرح يا طالبَ العلم وسائلَه، بين يدي الغني الذهاب ، وسله علماً نافعاً أو توفيقاً مباركاً أو فتحاً مبيناً أو رشداً شديداً، أو فهماً دقيقاً أو بلوغاً حميداً، فكل ذلك آلاء رحمته، ومنائر توفيقه. نسأل الله تعالى من فضله.

(8) **الحكمة التحصيلية:**

ضرب من الذكاء العلمي، الذي يُستعمل مع العلم ومعارفه الهائلة ونفائسة الزاخرة. وهي أدق من العنصر السابق (الاتزان النفسي) فهي موازنة دقيقة، وبصيرة نافذة، وتأمل عميق، يحسن مهارة التعامل مع العلوم والكتب ويسبر غورَ المعارف، ويقوم بتنظيم أولوياتها، وتخير مفرداتها الثمنية وعناصرها السمينة.

قال تعالى: " **وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً** " [البقرة:269]، قال الإمام مالك رحمه الله (**الحكمة: المعرفة بالدين، والفقه بالتأويل، الفهم الذي هو سجية ونورمن الله تعالى**) إن الطالب العلمي يحتاج الى إشراقات الفهم العميق، ترشده وتنير له سبيله، وتبصره بدوافع العلوم وغوائلها ومحاسنها ومكدراتها، وكلياتها، وجزئياتها فيختصر الطريق، ويصيب المحك، ويقع على الفريسة، ويصل الى الخاتمة المأمولة. إن العلوم والفنون المختلفة، قديمها وحديثها، واسعة الرحاب، وملأ بالغث والسمين، والطالب اللبيب هو من يتخير من كل شئ أحسنه، ويصيب قلب الشجرة، ويجتني رحيقها وعصارتها، ويتباعد عن أشواكها ومنكراتها.

إن حكمة الطالب التحصيلية تطارده في حركته ومشيه وفهمه وتلقيه، وحسه وكلامه، وسفره وترحاله، فهو يتحرك، ويقرأ ، ويثابر وفق حكمة تختزل المنهج العلمي، والحركة التاريخية والخبرة الحياتية، لتصل إلى جواهر العلوم، ولوامع المعارف، وزبد المسيرة والتقلاب.

إن الحكمة التحصيلية يفيد منها الطالب، في تمييز الكتب/ وانتخاب عميقها ومفيدها وليس مجرد سهلها ويسيرها! ويفاصل فيها بين الشيوخ والعلماء فينقطع إلى أكثرهم عقلاً وديناً وعلماً وليس مجرد الشهرة واللموع القضائي والتأليفي. ومن الحكمة الخفية على جمهرة التلاميذ التفنن في القراءة، فليس كل شئ يقرأ وليس كل شئ يحفظ، وإنما يقف الحكيم على مقاصد المتون فيحفظها، وعلى مهمات الأسفار فيستوعبها.

ومن الحكمة هنا، عدم الإغترار بالمظاهر والصيت المنقول عن الكتب والشيوخ والمؤسسات العلمية، وليجعلها على المحك، وليتعامل وليتأمل قبل الإقدام والإقتناع.

إن الحكمة التحصيلية، تتطلب نوعاً من الأناة، والتأمل، والعمق والتبصر في كل نشاط مبذول، أو حركة استثمارية أو سع فعال.

إن عصرنا مكتظ بمعارف مختلفة، وكتب في أزهى الطبعات، ومتكلمين باسم الاسلام، تجاوزوا حدَّ الكثرة، وتطالعنا الفضائيات والمنتديات بشيوخ وعلماء ومفتين ومؤلفين تجاوزوا الرهاب الأممي، الناشئ من الخوف على الإسلام، ومن اندراس شعائره!!

وكأننا بتنا في نهضة علميــة، وثــورة فكريــة، تبشر بمســتقبل بــاهر للإسلام! ولكن أين عصارة ذلك المفيــدة وترياقه الشـافي، وزهرته العابقة ونسمته الحانية، وصفاؤه البراق، ولمعته الأخاذة؟!
وأين في ذلك الاخلاص الشـــفاف، والعزيمة الخارقـــة، والصـــدق القاطع والغيرة الشاملة والتهم المتحرق؟!
والتي تكون مجرد من غرور منفوخ، أو صـيت مزيـف، أو جهالة مكشوفة، أو بمنيع فاضح، أو تعـاظم زائـل!! إن انفجـار الفضـائيات بـالهم الاسـلامي والعمل الـدائب، المتمثل في قنـوات مخصوصـة، وبـرامج مشـهورة، وفتـاوى مبثوثة لا يعـني الرضا بـذلك، والتواكل على انجازاتها وافرازاتها، أو القناعة بطروحاتها ومعطياتها!
بل لابد من تمحيصــها ونقــدها، وتنقيح رســالتها وتجريــدها من كل معـنى دينـوي رخيص، أو حط شخصي بـاهت. والعمل على تطـوير المفيد المتعمق منها لنشر رسالة الإسلام وإبراز قضـيتة الحضـارية ومسـألتة الإنسـانية. وأين مقــام التوحيد الخــالص، منها والاهتــداء النبوي، والمنهج السلفي القائم على قفو الوحـيين، واتبـاع السـلف الصـالح الكـرام، والحمـاس الـدعوي، والـدور الـدفاعي، والـرفض الاعتزازي، والشموخ الذاتي والاستعلاء العقائدي، والخيـار الجهـادي .. لا سيما تجـاه ظـالم معتـدٍ أو غاشم محتـل. قـال تعـالى: " **وَلاَ تَهِنُــوا وَلاَ تَحْزَنُــوا وَأَنتُمُ الأَعْلَــوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** " [آل عمران :**139**]، وقـال: " **وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْـتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** [آل عمـران:**146**]، وقـال تعـالى: " **وَقَـاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَـاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَـدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَـدِينَ** " [البقـرة:190]، إن الحمكة التحصـيلية ليست بمنــأى عن هــذه البحــار الزاخــرة، وما تلفظه من وحــوش ودرر ونفايات وغرر وطحالب وزهر، فهي تعاين وتدفق. وتشاهد وتتأمـل، وتحقق وتتعمــق، لتصل الى منتهى الســداد، وكبد الحقيقــة، وتِــبر المعرفة، وتسلم من كل غوائل الطريـق، وأمشـاج الحيـاة، وملاحن الأقوال والأعمال.
إن انتهـاج الحكمة التحصـيلية في شـئون العلم والعلمـاء، خليقة أن تبلّغ صاحبها، كنز البصيرة، وتاج الحكمة الشريفة، ويـاقوت المقولة الفريـدة الـتي هي رفـاف العز على رؤوس الحكمـاء الـذيي تحتـاج إليهم الأمة ولا ينفك عن وعيهم المــــــــدروس، وخطتهم الملهمة وتوجيهاتهم المعتـبرة، لا سـيما في هـذه الظـروف الحالية الملتهبة بتسارع الأحداث، وتسلط الأعداء، وانـدفاع عجلة الحيـاة المتفجـرة بصنوف العلوم، وتطورات التقنية، وبـذخ المغريـات، في محيط أمة لم تستيقظمن سباتها بعد، وتُعدَّ العدة للعمل والنهوض.

جُرحها راعف الشفاةِ وما جف والتــأم

ومن الحكمة المؤكـدة هنـا، ولا يمكن إغفالها قـراءة الكتـاب العزيز والسنة المطهرة، قـراءة فاحصة مبناها التـدبر والتأمـل، والنهـوض الفكـري المـورث للعلم والايمـان. قـال تعالى : " **كِتَابٌ أَنزَلْنَـاهُ إِلَيْكَ مُبَـارَكٌ لِّيَـدَّبَّرُوا آيَاتِـهِ وَلِيَتَـذَكَّرَ أُوْلُـوا الأَلْبَـابِ "[ص: 29]،**

(9) **الزمالة الطلبية:**

والمقصود بها تخيّر الأخ الصالح. والصديق المثابر، الذي يرافقك في الرحلة، ويصحبك في المسيرة. ويُشاركك المعاناة وتقتسم معه كسرة الخبز والماء والمؤانسة فهو صاحب المهمات وأبو الأفكار والمساعدات، ولن يعدم الطالب من أخٍ استوثق دين وعقله، وأحب خلقه وصحبته. **قال صلى الله عليه وسلم كما في سنن الترمذي (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل).** أن هذا (الخليل العلمي) ناقد بصير يدرك المحاسن ويلاحظ المعايب، ويرصد التجاوزات، ومن حق الإخوة والصداقة أن يرشد زميله الى ذلك. وإذا بُنيت الصداقة على الحب في الله، وتمحضّ النصح والوداد وحلت الثقة منها محلاً أرفعاً أثمرت قطوفاً **وشعت على الحياة العلمية ما يلي:-**

(1) دفع الشتات والفوضوية والهروع إلى منهج منظم.. وطريق مستبصرة للطلب.
(2) حفز النفس إلى التنافس والتعاون والمبادرة الجمعية والإتقانية .
(3) زحزحة العيوب ونقدها، والتوجيه بإبعادها وتوخي مخاطرها.
(4) ضبط الهيجان العلمي، والاندفاع الغاشم الذي يضر بالنفس، والعقل، والروح.
(5) تبادل المعلومات والخبرات والنصائح المستحسنة والكلمات المستجادة.
(6) التحفظ المشترك، والقراءة المتبادلة، وتعلم الهدوء والتركيز وأدب الحوار والانصات.
(7) دفع الخلل، ومداواة الكسل والملالة التي تنتج غالباُ من الوحدة والتفرد التحصيلي.
(8) إقامة الشاهد البرهاني على خطة الطالب وانتظامها ومعالمها وكتبها ومشايخها، وسلامة مشربها.
(9) اتقاء الذبول والتذبذب وكل مظاهر الارتجال والفوضوية، لأن كل واحد يحاول أن يشعر زميل الرحلة أنه على درجة عالية من الوعي والتنظيم ولذا يتحلى بالحكمة والهدوء.
(10) دفع الجانب السلوكي لدى الطالب، لا سيما إذا عُرف أنه مقدمة أولية وقاعدة صلبة لصعود سلم التلقي والتحصيل، حيث تفتح مضايقه وتسهل تعاسره ومهد معاقده والله الموفق والمعين.

وكلما كان زملاء الرحلة أكثر من اثنين، أي رهطاً متعاونين أثمر ذلك أضعاف الفوائد ، وكشف عن مزالق الطريق، وتجاوز مصاعبه ومكدراته ليصل بتوفيق الله وتسديده، إلى برّ الحكمة

والفتح والنجاح، وهو ما ينشده كل طـالب للعلم ينبغي فيه رضـوان الله، ويرجو زكاة نفسه، وصقل روحه، واتساع تفكيره.

وإذا صـحت مثل تلك الزمالــة، وابتغي بها وجه الله تعــالى، كـانت سبيلا لقوة اجتماعية دعوية، تتبنى مشاريع إصلاحية وخُططـاً علمية وتأليفية، كـان سـبهها التلاقي في العلمن والتـآخي في الله تعـالى، جمعهم همٌ واحد، واحتوتهم قضية متفـردة، سـاقتهم لعمل جمـاعي وجهد موحــد، لا ســميا وهم مؤمنــون، ترعــاهم شــريعة واحــدة، وتؤلفهم عقيدة صادقة، لا لف فيها ولا التواء.

إن الانخراط ضمن شللية عملية تهوى العلم، وتجمع مسائله، وتعقد أواصر البنـاء والتلاقي والمحاكـاة جـديرٌ أن تخــرج جيلا متمـيزاً، قد شـمخ بـالعلم، واعـتز بالمعرفة واشـتاق للعمل والانتـاج، بسـبب ما حصــل، اجتمــاع بــنيوي، وتنــافس نزيــه، وتكافل مــتين حيث يفيد بعضـهم بعضا ويحفز المجتهد المقصـر، ويحـاكي المتهـاوِن المثـابر، والناس كأسراب القَطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله . وأفاد ابن رجب رحمة الله **(أن النفوس تتأسى بما تشاهده من أحوال أبناء الجنس).**

(10) الإنجاز المرحلي:

نسبةً الى اجتياز مرحلة علمية معينة، أويسمى الإنجاز الجـزئي، بـأن يكـون حقق نصـراً ابتـدائيا في نطـاق العلم، بـأن يكـون قهر مصـاعب الحفظ أو التأصـيل الأولى، ليظفر بمتـون مصـونة، وكتب مفهومه، حسب البرنـامج العلمي المسـطور، والـذي وضـعه لحياته وهمتة، أو استفادة من علماء أو هيئات علمية.

وهـــذا الإنجـــاز أتى على خلفية ضـــرورة المتنهج والســـير بُحظى واضـحة، ثم النظر إلى ما تحمله النفس من عزيمـةٍ وهمـةٍ وتوقـد، لتجتاز أول اختبار لها، يقـوِّم سـلوكها ويثبِّت عُمـدانها، ويـدفعها إلى مزيد من العلاء والحد والامتياز.

ولـــذا يمكن أن تقـــرر هنا وهمية الانجـــاز الجـــزئي في العملية التحصيلية فيما يلي:

<u>أولاً</u>: أنه باعث على استمرار المنهجية العلمية لا سيما وقد تكللت مرحلتة الأولى بالغلبة والنجاح.

<u>ثانيــاً</u>: تنشط للحيوية الذاتيـــة، ودفعها للمواصـــلة، والانتقـــال إلى اختبارات علمية جديدة.

<u>ثالثاً</u>: ضبط للمسار وحفظ للبرمجة العلمية، وقطع كل طريق نحو الفوضوية والتشتيت.

رابعاً: إشـعار النفس بـالاعتزاز، والمعجـزة على ما تم، من توفيق الله لها، وإكسابها نوعاً من الوعي الطلبي والنباهة التحصيلية.

ومع هـــذه الفوائد البهيجة من الإنجـــاز الجـــزئي إلا أننا نحـــذر من عواقبه المطلقة التي ربما أورثت!

1- عُجْبًا بما تم، وغـــروراً يســـتولي على النفس، فـــيزرع فيها التعالي المذموم والترفع الطاغي، الذي يحرم من لـذة العلم وبركته، وحُسْن عائدته.
2- السكوت المتراخي والراضي بما حصل، وأنه حُق له التحدث والإفتـــاء، وإبـــداء المواقف العلميـــة، ومشـــابهة الفضـــلاء الراسخين.
3- اسـتعجال التصـدر والـبروز ظنـاً منه أنه حفظ أصـولَ العلم، وضـــبط معالمه الأساســـية، وذلك كـــافٍ لإبـــراز البضـــاعة وممارسة التجـارة الرابحـة!! وهـذا لا يعـدو أن يكـون جهلاً بواقع العلم وبحـاره الزاخـرة، ولا يـزال الطـالب في البحر الأول وفي شبرٍ من الأشبار الثلاثة المشهورة.
4- الانقطاع التحصـيلي، بسـبب النجـاح المبـدئي، حيث نجد من يحفظ القـرآن مثلاً ويضـبط عمـدة الأحكـام، يفـرح بـذلك مطلقاً، وأنه حاز الكمال، وبلغ الرشاد، فحقه الراحة والقعـود والانقطاع والرقود وهذا خطأ منهجي.

فلمـاذا لا أفكر بعد الحفظ والضـبط أن أقـرأ تفسـير القـرآن، وتأمل معانية وبحث مسائله الأحكاميـة، وتأمل قضـاياه الرئيسـية... وهلم جرا.
ومتن عمــدة الأحكــام، دافع لي أن أتعــرف على ؟معــاني هــذه الأحــاديث الشــريفة، وأن اكتشف أســـرارها الفريـــدة، من خلال شروحات مختصرة، تحوطني بالفقه والوعي والاسترشاد.
وأزيد عليـه، أن أجمـعَ شـروحا أخـرى، تناسب مسـتواي وأعقد المقارنة بينهـا. وإن كـان لا يـزال لـدىّ نهمـةً للحفـظ، فأنتقل الى كتـــاب آخر كصــحيح البخـــاري، أو اللؤلؤ والمرجـــان ، فأطالعه ، وأتحفظ ما يطيب ويتيسر. والمحصَّل هنا أنَّ تحـاوز المرحلة الأولى بنجاح لا يعـني الانقطـاع بل يجب أن تكـون دافعـاً لمرحلة جديـدة. مزهوة بالمعاني والأسرار التوضيحية لمتـون المرحلة المتقدمـة، أو إنجاز ضبطي آخر، يُضاف إلى ذلك الإنجاز. كذا هي البهجة بالإنجــاز المــرحلي! المضــيّ والجد والمواصــلة وليس الضــعف والســكون والانقطاع.
إن الإنجاز المـرحلي، يعتـبر أداةً قوية لتثـبيت البرنـامج المتبـع، ومؤشــراً لحفظ اتــزان الطلاب النفسي والعلمي، بحيث لا يداخله الفتور، أو يعتريه الانهزام والاستهانة. ومن الضروري لطــالب العلم أنْ يقسم سيره المنهجي إلى مراحل وخطـوات وفصـول متدرجـة، يبدأ أولا بأصيلها ثم دليلها ثم جميلها، ويحــرص ألا ينتقل إلى مرحلة جديـدة، إلا بعد تخطيه بوسـام الإنجـاز المـرحلي الـذي هو خطـوة للأمام، ودوفعه متقدمة للكدح العلمي، والعناء التحصـيلي، إذ العلم مراتب ومراحل، ولا يُتصوَّر طلبه في مرحلة واحـدة! بل لابد له من سلالم متدرجـة، ومنـازل متصـاعدة، تأخذ الطـالب خطـوةً خطـوة، وترسخه بتـدرج متمـيز، وتفقهه حسب تـرتيب رصـين يمر بمراحل الحفظ، ثم الفهم، والاستنباط، رغم النشر والعمل والبلاغ.
وكـــذا هو العلم بمراتبه ودرجاته المتتابعة والشـــاهد من هـــذا الكلام المثبت هنا أنّ الإنجاز المرحلي، ليس حسماً لقضـية الطلب، أوختما لحقائقهــا، بل هو مقدمة ثابتــة، وارضــية يــرجى صــلابتها لمواجهة بقية المراحل والفصول المتعاقبة. والله الموفق.
إن الإنجاز المرحلي قطرة في طريق يابس، ولا يـزال محتاجـاً إلى قطرات متتابعـات تفضي على كل ألـوان الجـدب والجفـاف، وتحي القلب الإنساني بينابيع الغيث والصـفاء، وتضئ العقل ببيـارق النـور والضياء، وتزكي السلوك بأعلام الهدى والاستقامة. وهذا نذر يســير في بركة العلم المزهرة وعائدته الزاهية التى لا يُشـبع من مائـدتها، ولا يُمل سماعها، ولا يزهد في عبقها وأريجها.

فلو قد ذقتَ من حلواه   لآثـرت التعلـم واجتهدتا طعما

ولم يشغلك عنه هوى مطاعُ ولا دنيا بزخــرفتها فتنتا
فقوتُ الروح أرواح المعاني وليس بأن طعمت ولا شربتا

إن أرواح المعـاني حـدائق غنـاء، وبسـاتين ذات بهجـة، وريـاض يانعــة، تسر النفس البشــرية برؤيتها واستنشــاق عبيرها فكيف لو ولجت زهورهـا، وخـالطت أوراقها وثمارهـا، واسـتذافت من عناقيد أفنانها وفواكههـــا. إنها للحظة نورانية فريـــدة، وســـعادة روحاينة خالدة، استطعمها الأوائـل، وعاشـها أئمه الإسـلام وكل حمله العلم الذين ضحوا من أجله، وصبروا على شدته ورزايـاه. فيا عجبـاً كيف يُزهد فيــه، ويُلتمس ســداه؟ وتُطلب الســعادة في أشــياء أخــرى وعلوم ترفيه، ومواطن عبثية؟!!

إن لذاذة العلم ، وخيمة وجنحه السعادة، التي تكتنف بها حملته وطلابه، شئ يفوق الخيال، ويتجاوز الوصـف، لا يمكن أن أعـبر عنه إلا بالشــواهد التاريخية وإلاحــداث الوقائعية الــتي رســمها الأئمة الأفذاذ عندما اختاروا هذا المسـلك، وآثـروه على ما سـواه، وبـذلوا فيه دمهم ودموعهم وأموالهم، غـير مبـالين بغانيـةٍ حسـناء، ولا زينة غراء، ولا دنانيرفاخرة، ولا منازل عالية!!
هذا يحيى بن معين رحمه الله، أمام الحديث الشهير لما سئل مــاذا تشتهي فقال (**بيت خالٍ وإسناد عالٍ**). واسـتمع الى الإمـام ابن فــارس اللغــوي مــاذا يقــول ويســطر من عمق فــؤاده الراضي ونفسيته السعيدة.

وقالوا كيف حالك قـلت خير نقضي حاجة وتفوت حاجُ
اذا ازدحمت همومُ الصدر قلنا عسى يوما يكون لها انفراجُ
نديمي هرتي وأنيسي نفســي دفاتر لي وشوقي الســراج

ولا أجد تعبيراً غريباً للسعادة العلمية، والبهجة الروحية، من مقولة الإمام الذكي الشافعي رحمه الله عندما سئل (كيف شهوتك للعلم؟ قال: أسمع بالحرف مما لم أسمعه، فتود أعضائي أن لها أسماعا تتنعم به، مثل ما تنغمت به الأذان، فقيل له: فكيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجَموع المنوع في بلوغ لذته للمال، فقيل له: فكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلّة ولدها، ليس لها غيره) (توالى التأنيس لابن حجر ص 62) فهذه اللذة المتناهية والسعادة البالغة وليست في مائدة شهية ولا منصب مرموق, ولا جاه شريف، ولا متعة وقتية بل إنها في العلم ودرسه، وتفهم

مسائله، وأخذه من موارده، والسعي في تحصيله.
وإن السعادة الباسمة، تطارد طالب العلم في حِله وترحالـه، وقوله وصمته، وأكله وشـربه، وحديثه وفتـواه ودعوته وتأليفه وكل نشـاط مبارك له.
لقد وضع الله السعادة بجوانحها، واللذة بأطرافها في معصم طالب العلم، الـذي أخلص لـه، وابتغى نـوره وهدايته وسـعى إليه سـعي المخلصين، واهتم به اهتمام المحترقين.
فهو نـور يُضئ الله به ظلمـات الحيـاة، وهو رحمة يفيضـها الله من شـاء من عبـاده، وهو ضـياء يشـرق به القلب المعـزول، وهو بركـة، صـنعها البـاري لعبـاده المخلصـين، وهو سـعادة تلتف على أجسـاد الصـادقين، وهو تـاج يكلل به رأس السـالك الى اللـه، وهو مزمار يتغني به كل ذي شجن وأنكاد. وهو رقية الزمـان الحالة لكل عقدة ونذير وهو أنغام الحياة، وترنيمات الشداة وأهـازيج الشـعراء، ومعلقات الأدباء، التي تحترق الحدود، وتكتسح السدود.

الزخرفات أكاد أسمع نبضها والزركشات على السقوف تُنادي

وهو كلمة الحق القاطعـــة، ودليلها الصـــيال وعنوانها الخـــاطف، وموضـوعها المـؤثر، وفكرتها العميقـة، ودرسـها البليـغ، وفائـدتها الآسـرة وثمرتها الزاهـرة. وهو كل ثنـاء ومـدح وتبجيـل، ولو قُـدِّر لطالب علم راسـخ، أن يصـنف في العلم وفضـائله، والفقه وجلائله لما أوفاه حقه، ولرسم لأجله المجلدات وسود الصـفحات، واختـزل الكلمات البديعات. لأنه أسـمى ما أمتن الله به على الإنسـان، وأغلا هديه تُجلب لبني آدم.
فمتى يعي أبناؤنا هذه القضية الجلية؟! والمسـألة العظمي فيجـدوا فيها جداً لا تنفرط حبائله، ولا تنهدم ركائزه ولا تتعكر مشاربه.
إنه العلم الذي سما بصـنعة الله له وجعله منـارة صـدق الانبيـاء والرسل الذي أمتعهم الله بعلم شرعه، وفقه دعوتـه. وحسن نظمه وترتيبه، إنه العلم الشريف الكاسح لشبهات الضالين، والماحق لكل دعاوي الخرافيين، وهو الذي ارتضاه كل نـبي، وعلا بة كل رسـول ، وتفاخر به كل إمام متحدث!
فـأين نحن من هـذا الجـوهر المـذهب، والـدرة اللامعـة، والسـبائك الباسقة؟! التي لا يغـني عنها جـاه كبـير. ولا مـال مـذخور ولا ثـروة غالية! بل هو رأس الثروات وعماد الجاه ونفـائس الأمـوال فهو أغلا ما ملك الانسان، وهو الجـاه الحصـيني ، وهو الـثروة الباهظة يحـوز بها العبد المخلص سـعادة الـدنيا والآخـرة، ويتقلد بها مقاليد العز والتمكين، ويـبيت الإمـام العظيم والأسـتاذ المقـدم صـاحب الكلمة المسـموعة، والخطـاب الفاصـل، والحـديث النافـذ! فمن يبلغ هـذه المكانة، أو يضاهي هذه المنزلة، أو يضارع هذه الزعامـة؟! كل ذلك

بسبب سلطنه العلم وسيادته الصارمة، ورئاسته المتجددة كما قيل.

إن الأكابريحكمونَ على الورى وعلى الأكابر يحكمُ العلماءُ

لكن ذلك لا يتم إلا بشرائطه وأصوله التى تصون نتاجه وتضبط سيادته وتحفظ مروءته، وتقوم بحقه وواجباته وهي مقوماته الرئيسة، وعمدانه العميقة، التي تجعله الجاه المرعب والقصر المنيف، **ويمكن تقريرها فيما يلي:-**

1- التجرد الصادق لله تعالى في طلبه، ونصرة دينه واحتساب خطواته.
2- صاينته من كل آفة والحفاظ على تاجه الباهي. وهيبته الشامخة.
3- الترفع به، وعدم تلويثه بزهرات الدنيا ومفاخرها.
4- حمله، وأداؤه بكل اعتزازه، وشموخ، والحذر من ابتذاله أو تسطير أي لون مذلة على جبينه.
5- قوة الشخصية في بذله والدعوة به، وعرضه على الناس.
6- اعتقاد جلالته، وعلو ذاته، ونسبه التي لا تُخرق بأي مطامع دنيوية، أو آفات شخصية.
7- عدم استرخاصه في مواقف مبتذلة، أو الاشتراء به ثمناً قليلاً من خلال فتوى مفضوحة، أو موقف ذليل، أو تصنيف نفاقي، أو محاضرة استرضائية تخرق جدار رئاسته، وتقوِّض بنيان سلطانه وهيبته، عافانا الله وإياكم من هذه المسالك.

فإذا توقي العالم الشرعي مثل تلك النواقص وعمل بالمقومات الثابتة هابه الناس، وأجلّه السلطان ودوّت كلمته في كل مؤتمر ومحفل، وقبض على مفتاح الجماهير، وقادهم الى فور الدهر، ورخاء العيش وحرية الذات والعقل والسلوك التي لا تتصادم مع الإسلام وشرائعه.

ومما ذُكر في ترجمة الإمام الفذ القدوة يزيد بن هارون السلمي قول الخليفة العباسي، المأمون في مكانته العظيمة (لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرتُ القرآن مخلوق، فقيل، ومن يزيد حتى يُتقى؟ فقال: ويحك إني لأرتضينه ، لا لأن له سلطنه، ولكن أخاف إن أظهرته فيرد علي فيختلف الناس، وتكون فتنه.

وفي رواية أن رجلاً من جهة المأمون خرج إليه في واسط فقال: يا يزيد: أمير المؤمنين يقرئك السلام، ويقول لك: أريد أنه أظهرَ: القرآن مخلوق، فقال: كذبتَ على أمير المؤمنين، فإنه لا يحمل الناس على ما لا يعرفونه.

هذا هو الإمام يزيد، وهذه هيبته عند الخلفاء، وقد حاز الكمال في عبادته، وعلمه، وحفظه ونباهته.

وهو من قيل لأحمد بن حنبل عنه : (يزيد بن هـارون له فقـه؟! فقال: نعم ما كان أذكاه وأفهمَه وأفطنه)!!.

وفي ترجمتة عيـون نفيسـة، جـدير بطـالب العلم، تعلمها وتفهمها واستحضارها في المسيرة العلمية والدعوية.
إذن العلم الشرعي تاج وشرف، ورفعه وإمامـة، وسـيطرة وزعامة لمن أدى حقها، واحتسب القيام بها لله تعالى.
يقول الامام الشافعي رحمه الله في كتابه الفريد (الرسالة): (فإن من أدرك علم أحكـام الله في كتابـه. نصـاً واسـتدلالاً، ووفقه الله للقول والعلم بما علم منه، فـاز بالفضـيلة في دينه ودنيـاه، وانتفت عنه الريب، ونوَّرت في قلبه الحكمـة، واسـتوجب في الـدين موضع الإمامة). (الرسالة ص 19).